حديث سورة يونس عن الإيمان

دراسة بلاغية

إعداد

د/ سحر منصور السيد صباح

أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية – كلية التربية

جامعة المجمعة – المملكة العربية السعودية

قسم البلاغة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات – جامعة الأزهر

و

د/ وليد السيد مصطفى فرج

أستاذ مساعد في قسم البلاغة والنقد –

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالمنصورة – جامعة الأزهر

١٤٤٢هـ = ٢٠٢١م

بسم الله الرحمن الرحيم

حديث سورة يونس عن الإيمان. دراسة بلاغية

سحر منصور السيد صباح
قسم اللغة العربية، كلية التربية، جامعة المجمعة، المملكة العربية السعودية.
البريد الإلكتروني:
sahar. m@mu. edu. sa

وليد السيد مصطفى فرج
قسم البلاغة والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات، جامعة الأزهر بالمنصورة، مصر.
البريد الإلكتروني:
dr. waleedfarag@azhar. edu. eg

ملخص البحث:

يحاول الإجابة عن الأسئلة الآتية: ما السر البلاغي في تسمية السورة بيونس؟ ولماذا اختصت السورة باسم يونس ولم تذكر قصته فيها مفصلةً؟ وما علاقة تسمية السورة بيونس بحديثها عن الإيمان، وما مظاهر ترابط حديث السورة عن الإيمان وآلياته؟ وما أسرار النظم ودقائقه المهيمنة على حديث السورة عن الإيمان، والمُشَكِّلَة لملامحِه؟ وكان المنهج المتبع في هذه الدراسة منهجًا بلاغيًا تحليليًا، وقد قُسِّم البحث إلى مبحثين مسبوقين بمقدمة وتمهيد، متبوعين بخاتمة وثبت لأهم المصادر والمراجع، والمقدمة تضمنت أسباب اختيار الموضوع، وأهدافه وأهميته وأسئلته، وكيفية تقسيمه، والتمهيد تضمن أمرين: الأول: بين يدي سورة يونس. والثاني: مفهوم الإيمان، وبيان مقصود البحث بحديث السورة عن الإيمان، والمبحث

الأول: من أسرار السياق في حديث سورة يونس عن الإيمان، والمبحث الثاني: من أسرار النظم ودقائقه في حديث السورة عن الإيمان، وتضمنت الخاتمة أهم النتائج التي أسفرت عنها الدراسة، وختم البحث بثبت لأهم مصادره ومراجعه.

الكلمات المفتاحية: سورة يونس – الإيمان – بلاغة– إعجاز – القرآن– أسرار – دقائق.

the eloquence of the Qur'an in the hadith of Surat Yunus about faith

Sahar Mansour Al-Sayed Sabah* ،
Department of Arabic Language ،College of Education ،Majmaah University ،Kingdom of Saudi Arabia
Email: Sahar. m@mu. edu. sa
Waleed Al-Sayed Mustafa Farag
Department of Rhetoric and Criticism ،College of Islamic and Arabic Studies for Girls ،Al-Azhar University in Mansoura
،Egypt .
Email:dr. waleedfarag@azhar. edu. eg

Abstract:

He tries to answer the following questions: What is the rhetorical secret in naming Surah Yunus? And why was the surah singled out in the name of Yunus ،and his story was not mentioned in detail? What is the relationship of naming Surah Yunus with her talk about faith ،and what are the manifestations of the interrelationship of the Surah's talk about faith and its mechanisms? What are the secrets of the system and its subtleties that dominate the surah's talk about faith ، and shape its features? The approach adopted in this study was a rhetorical and analytical approach ،and the research was divided into two sections preceded by an introduction and a preface ،followed by a conclusion and a confirmation of the most important sources and references. And the second: the concept of faith ،and a statement of the purpose of the research in the surah's

hadith on faith ،and the first topic: from the secrets of the context in the hadith of Surat Yunus about faith ، and the second topic: from the secrets of the systems and its subtleties in the hadith of the surah about faith ، and the conclusion included the most important results that resulted from the study ،and the research concluded Proof of the most important sources and references.

Keywords: *Surat Yunus - faith - eloquence - miracles - the Qur'an- secrets - minutes.*

مقدمة

الحمد لله حمداً كثيرا، والصلاة والسلام على من أوحى إليه ربه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ۝٤٦﴾ (الأحزاب: ٤٥ - ٤٦)، وعلى آله وصحابته وتابعيهم المؤمنين المُحْسِنينَ المبشرين بأن لهم من الله فضلاً كبيرا، وبعد:

فإن مما يُدْمِي قلب كل مسلم غيور على دينه، حريص على رفعة الإسلام، وعزَّة المسلمين، أن يرى الإسلام قد غدا عَلَمـاً منصوبـاً يُصَوَّبُ إليه جميع الحاقدين الموتورين-من أعدائه، أو من المنتسبين إليه زوراً- سهامهم المسمومة، وما ذاك إلا لوهن قد استولى على قلوب أبنائه فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: (يوشك الأمم أن تداعى عليكم، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. فقال قائل: ومِن قلَّةٍ نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذٍ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السَّيل، وَلَيَنْزِعَنَّ الله مِن صدور عدوِّكم المهابة منكم، وليقذفنَّ الله في قلوبكم الوَهَن. فقال قائل: يا رسول الله، وما الوَهْن؟ قال: حبُّ الدُّنيا، وكراهية الموت)(١).

ومن هنا تأتي أهمية هذا البحث البلاغي المعنون بـ(بلاغة القرآن في حديث سورة يونس عن الإيمان) الذي يصب كامل طاقته، وموفور عنايته على دراسة موضوع من أهم الموضوعات التي، عُنِيَ بها القرآن الكريم، وهو موضوع الإيمان، أو الدعوة إلى توحيد الله عز وجل وإفراده بالعبادة، دعوة

---

(١) ينظر سنن أبي داود تح: شعَيب الأرنؤوط، باب في تداعي الأمم على الإسلام، ج٦ ص٣٥٥، دار الرسالة العالمية، ط١، ٢٠٠٩م.

متضمنة لركنين أساسيين هما: الإنذار والتبشير، وذلك من خلال سورة يونس.

حيث إنه يعمل جاهدا على بيان أوجه التناسب والارتباط الوثيق بين آيات حديث السورة عن هذا الموضوع، فيما يُسمَّى بالبلاغة الموضوعية، مما يشهد بأن القرآن الكريم، ليس من صنع بشر، وأنه من لدن حكيم خبير، ومما يُثبِتُ وجوهـًا متعددةً من وجوه إعجازه، فقد قيل: إن جُلَّ لطائف القرآن كائنة في الترتيبات والروابط(١)، كما جُعِل التناسب بين الآيات والسور وجهـًا جليلاً من تلك الوجوه.

وقد قيل أيضـًا إن الكلمة القرآنية كنز معان وبحر حقائق(٢)، ولذا فإنه يحاول إبراز أهم الخصائص البنائية والأنماط التعبيرية وأسرار النظم ودقائق الصياغة التي شَكَّلَت ملامح حديث سورة يونس عن الإيمان، فلعله يكون لَبِنَةً ذات قيمة في صرح الدراسات البلاغية المبرهنة على إعجاز القرآن الكريم، ذلك الصرح الذي يعلو كل يوم ويتضخم بما يضيفه إليه الباحثون في جميع المجالات، خصوصـًا أهل البلاغة من مُكتشفات تتعلق بمجال دراستهم لبلاغة القرآن وإعجازه.

---

(١) ينظر معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي، ج١ ص٤٣، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط١، ١٩٨٨ م، وينظر مفاتيح الغيب للرازي، ج١٠ ص١١٠، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط٣، ١٤٢٠ هـ.

(٢) ينظر بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي، ج١ ص٧١، تح: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، بدون.

ولعل هذا البحث-بتسليطه الضوء على ما ذُكِر - يكون سببا في إيقاظ النائمين من أهل الإسلام ليعملوا على استرداد مجدهم القديم، ويحرِّك عقول ومشاعر المعاندين المكذبين فلعلهم يُفحَمون، أو يرتدعون.

وكان أهم سبب دفعني إلى اختيار هذا الموضوع - بالإضافة إلى ما سبق-هو ما ظلت سورة يونس تهمس إليَّ به كُلَّما عاوَدتُ مناجاتها مرة بعد مرة، بأن موضوع الإيمان من أهم الموضوعات التي تحتفي بها، وبرهنت لي على ذلك بما يظهر من تكرار لِلَفظ الإيمان بمختلف مشتقاته قرابة ثلاثين مرة موزعة على مختلف آياتها، بل إنه قد يتكرر في الآية الواحدة ثلاث مرات.

ولذا فقد عمدتُ إلى التأهب، مُعِدَّاً العدة، مُلقيًا بنفسي في لُجَّة هذا المحيط، الزاخر، محاولاً اصطياد بعض لآلِئِه.

وكان من أهم الأسئلة التي دارت بخلدي مُمَثِّلَةً أهداف هذا البحث:

- ما السر البلاغي في تسمية السورة بيونس؟، وعلاقته بحديثها عن الإيمان.
- لماذا اختصت السورة باسم يونس ولم تذكر قصته فيها مفصلةً؟، ووجه ارتباطه بالحديث عن الإيمان
- ما المقصود الأعظم للسورة، وما علاقته بحديثها عن الإيمان؟
- ما مظاهر ترابط حديث السورة عن الإيمان وآلياته؟
- كيف كان تتابع آيات الحديث عن الإيمان وتواليها في سياق السورة بليغًا معجزاً
- ما أسرار النظم ودقائق الصياغة المهيمنة على حديث السورة عن الإيمان، والمُشَكِّلَة لملامحِه؟

➢ وكان المنهج المتبع في هذه الدراسة منهجـًا بلاغيـًا تحليليـًا.

وقد قُسِّم البحث إلى ثلاثة مباحث سُبِقت بمقدمة، وأتبعت بخاتمة وثبت لأهم المصادر والمراجع.

المقدمة تضمنت أسباب اختيار الموضوع، وأهدافه وأهميته وأسئلته، وكيفية تقسيمه ومنهج الدراسة.

المبحث الأول: بين يدي سورة يونس.

المبحث الثاني: مظاهر ترابط آيات الحديث عن الإيمان وتلاحمها وبلاغة تواليها.

المبحث الثالث: من أسرار النظم ودقائقه في حديث السورة عن الإيمان.

الخاتمة: تضمنت أهم النتائج التي أسفرت عنها الدراسة

وختم البحث بثبت لأهم مصادره ومراجعه

والله الموفق

۞۞۞۞۞

المبحث الأول: بين يدي سورة يونس

أولا: فضل سورة يونس، ومناسبتها لما قبلها وما بعدها.

ذُكِر في فضل سورة يونس أنها من القرآن الذي نزل مُشيَّعًا، حيث قيل: (إنها قد نزلت ومعها ثلاثون ألف مَلَك)(١)

(ونزلت بعد سورة الإسراء، وكان الإسراء قبل الهجرة بسنة، فتكون سورة يونس من السور التي نزلت بين الإسراء والهجرة(٢).

وهي (مَكِّيَّةٌ فِي قَوْلِ الْحَسَنِ وَعِكْرِمَةَ وَعَطَاءٍ وَجَابِرٍ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِلَّا ثَلَاثَ آيَاتٍ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ [يونس: ٩٤] إِلَى آخِرِهِنَّ. وَقَالَ مُقَاتِلٌ: إِلَّا آيَتَيْنِ وَهِيَ قَوْلُهُ: " فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ" نَزَلَتْ بِالْمَدِينَةِ. وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: مَكِّيَّةٌ إِلَّا قَوْلَهُ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦٓ﴾ [يونس: ٤٠] نَزَلَتْ بِالْمَدِينَةِ فِي الْيَهُودِ. وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: نَزَلَ مِنْ أَوَّلِهَا نَحْوٌ مِنْ أَرْبَعِينَ آيَةً بِمَكَّةَ وباقيها بالمدينة)(٣).

وترتيبها العاشرة في المصحف بعد براءة وقبل هود.

---

(١) ينظر البرهان في علوم القرآن للزركشي، ج١ ص١٩٩، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط١، ١٩٥٧ م، ثم صورته دار المعرفة لبنان.

(٢) ينظر النظم الفني في القرآن الشيخ عبد المتعال الصعيدي، ص١٣٧، مكتبة الآداب، بدون.

(٣) ينظر تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن، ج٨ ص٣٠٤، تح: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية القاهرة، ط٢، ١٩٦٤م.

وقد ذكر في مناسبتها لما قبلها(سورة التوبة) قولهم (لمَّا ختم براءة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ﴾وبقوله: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾الآية، ناسب ذلك إتباعه بقوله:

الأول: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾، وللثاني: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾فالكتاب السورة، والرسول المنذر)[1].

كما ذُكر في مناسبتها لما بعدها (سورة هود) قولهم: لمَّا قال: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ [سورة يونس:١٠٩]، بيّن بعده أنّ الوحي المأمور باتباعه هو﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ ، فهو جدير باتباعه، والصّبر على ما تضمنه من التكليف.

وجهٌ آخر: لمَّا ذكر نجاة قوم يونس، وتمتعهم إلى حين بعد قبوله توبتهم، أرشد في عقب ذلك إليها بقوله: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ كما متع أولئك باستغفارهم، وتوبتهم الخالصة.

وجهٌ آخر: لمَّا اشتملت سورة يونس على أدلّة توحيده وقدرته بخلق السموات والأرض، وذِكر العرش، وغير ذلك من الآيات، وليها هذه السورة، لقوله تعالى:﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ

---

(١) ينظر تناسق الدرر في مناسبات السور للسيوطي، ص٧ تح: د. جميل عويضة، ٢٠١٠م.

أَيَّامٍ﴾ [سورة هود:٧]، وناسب ذكر المخلوقات هنا كما ثَمَّة ناسب قوله: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ﴾ الآية لقوله: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ (١).

وأقول: إن مناسبة سورة يونس لما قبلها أنه ذكر فيها قبول توبة قوم يونس وما خَصَّهم الله به من قبول توبتهم عند معاينتهم العذاب على النحو الآتي بيانه بعد أن ذكر في سورة التوبة قوله: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٥﴾ (الآية: ١٥) وقوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢٧﴾ (الآية: ٢٧) وقوله: ﴿فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٧٤﴾ (الآية: ٧٤) وقوله: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٠٦﴾ (الآية: ١٠٦) وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝١١٨﴾ (الآية: ١١٨)

وغير ذلك من آيات ترد قبول توبة التائبين إلى مشيئة الله، وكأنه توطئة لسورة يونس التي ذُكر فيها قبول توبة قوم يونس عند معاينتهم العذاب وذلك وقت لا ينفع فيه الإيمان إلا بمشيئة الله عز وجل فقد استثناهم للأسباب الآتي بيانها فيما يرجحه البحث، فكان مجيء سورة يونس بعد سورة التوبة لضرب المثل لتقرير هذه الحقيقة، وترسيخها في الأذهان.

(١) ينظر تناسق الدرر ص٧ وما بعدها.

وأقول أيضا عن مناسبتها لسورة هود الواردة بعدها في ترتيب المصحف وفي ترتيب النزول: إنه لما ذكر قصة استثناء قوم يونس وكان ذلك هو الاستثناء الوحيد من السُنَّة الربَّانية، أتبعه بما يؤكد حقيقة عدم نفع الإيمان عند وقوع العذاب، فَفَصَّل كثيرا من قصص الأنبياء التي تؤيد هذه الحقيقة، حيث فَصَّل قصة نوح مع قومه وكانت مُختصرةً في سورة يونس، وذكر قصصا أخرى لأنبياء مع أقوامهم كقصة هود مع قومه عاد، وقصة صالح مع ثمود، وقصة لوط مع قومه، وقصة شعيب مع مَدْيَن، وقصة موسى مع فرعون، وقد ذُكرت في سورة يونس من وجه، وكان تفصيلها في سورة هود من وجه آخر، هذا كله مع تفصيل لأقوال الأنبياء، وردود الأقوام، وبيان كيفية العذاب.

وجاء قوله تعالى عقب تلك القصص المُفَصَّلة ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾ (الآيات: ١٠٠ – ١٠٤)

ويبدو لي أن سورة هود كان معظمها تفصيلاً لآية واردة في سورة يونس وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتْهُمْ

﴿رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾﴾ (الآية: ١٣)

ولو ذهبنا نَتَتَبَّع جميع آيات سورة هود لوجدنا لكل آية جذراً، أو شقيقةً في آيات سورة يونس، وهذا وجه جليل من وجوه إعجاز القرآن.

وتأمل قوله تعالى في سورة هود ومدى الارتباط الكائن بينه وبين آية إهلاك القرون السالفة في سورة يونس: قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [سورة هود:١١٦-١١٧].

وبين قوله في سورة يونس وهي الآية التي أجعلها قطب الرحى في السورة، ولعل السورة سميت بيونس لأجلها: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ (الآية: ٩٨)

❁❁❁❁❁

ثانيًا: المقصود بحديث السورة عن الإيمان

الإيمان في اللغة هو التصديق، جاء في القاموس المحيط (وآمَنَ به إيمانـًا: صَدَّقَهُ. والإِيمانُ: الثِّقَةُ، وإظْهارُ الخُضوعِ، وقَبولُ الشَّريعَةِ)[1].

---

(١) ينظر القاموس المحيط للفيروزآبادي مادة أ م ن، مؤسسة الرسالة بيروت لبنان، ط٨، ٢٠٠٥م.

والإيمان على مذهب أهل السنة (أنه قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح، يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي".

هذا هو منهجهم واعتقادهم في الإيمان. أن العمل داخل في حقيقة الإيمان وأنه لا إيمان بدون عمل، وأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية حسب ما حل بالقلب من ذلك.

وهذا هو الواضح من النصوص الكثيرة في القرآن الكريم وفي السنة النبوية، إلا أنه قد تختلف تعبيرات أهل السنة عن حقيقة الإيمان فيعرفونه بصيغ مختلفة، ولكن القصد واحد، وهو إدخال العمل في حقيقة الإيمان كما يدل عليه كلام الله تعالى وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم)[1].

وقد بَيَّنَ البحث هذا عند تحليله للآيات التي جُمِعَ فيها بين الإيمان وعمل الصالحات، تحليلاً بلاغيا كاشفاً عن مدى ترابطها ودقة صياغتها.

والذي يعنيه البحث بحديث سورة يونس عن الإيمان، هو ورود لفظ الإيمان بأحد مشتقاته في آية من آيات السورة، فيغدو هذا الورود كالخيط الذي يؤاخي بين حبات اللؤلؤ في عقد واحد، أو كالروح التي تسري في الجسد لتمنح جميع أعضائه. القدرة على التفاعل فيما بينها

وقد ورد الإيمان بمشتقاته في السورة ما يقارب ثلاثين مرة، بصيغ مختلفة بين الفعل الماضي والفعل المضارع والمصدر، واسم الفاعل، ولكن الغلبة كانت للفعل الماضي، حيث ورد ثلاث عشرة مرة، ولعل السر في ذلك أنه

---

(١) ينظر فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، د. غالب بن علي عواجي، ج٣ ص١١١١، المكتبة العصرية الذهبية، جدة، ط٤، ٢٠٠١م.

ارتبط غالبـًا بسياق الحديث عن الجزاء على الإيمان فجاء بصيغة الماضي لبيان استحقاق ذلك الجزاء.

ويتلوه الفعل المضارع الذي ورد تسع مرات، يدل أغلبها على معنى المستقبل، ولعل السر فيه أيضـًا أنه ورد في سياق الإخبار عن عدم إيمان من حقت عليهم كلمة الله، ولذا فغالبا ما يأتي بعد النفي.

وجاء اسم الفاعل ست مرات، في سياقات متعددة كسياق الدعوة إلى الإيمان، وسياق تبشير المؤمنين، وسياق تكذيب الرسول والإصرار على الكفر، وسياق الإنكار على النبي أن يكون منه إكراه للناس حتى يكونوا مؤمنين، وغير ذلك من سياقات، سيأتي تفصيلها.

وجاء المصدر مرتين، لبيان كون الإيمان سببا لدخول الجنة، أو سببا للنجاة.

وسوف يعمل البحث – فيما يأتي من صفحات- على بيان الترابط والتلاحم، والمناسبة بين هذه الآيات جميعا، مع رصد أهم الخصائص البلاغية والأنماط التعبيرية، ودقائق الصياغة التي شَكَّلَتْ ملامح هذا الحديث.

وقبل أن نخوض غمار هذه الآيات الواردات في سورة يونس، وقد انتظمها جميعا ذكر الإيمان بأحد مشتقاته للوقوف على مدى ترابطها وإحكامها، ينبغي أن نجيب أولا عن بعض الأسئلة:

أولها: ما علاقة اسم السورة يونس بحديثها عن الإيمان،

وثانيها: لمَ سميت السورة يونس، وإنما كان الحديث فيها حديثا مقتضبا في إشارة عجلى عن قومه، وما خصهم الله به من توبته عليهم وقبول إيمانهم بعد معاينتهم لعذابه.

وثالثها: ما الغرض العام، أو المقصود الأعظم الذي سيقت السورة من أجله، وما علاقته بحديثها عن الإيمان

❁❁❁❁❁

ثالثاً: السر البلاغي في علاقة اسم السورة بحديثها عن الإيمان

وللإجابة عن السؤال الأول نقول: إن الجذر الذي يرجع إليه لفظ يونس هو الجذر و ن س أو أ ن س وهو (أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ ظُهُورُ الشَّيْءِ، وَكُلُّ شَيْءٍ خَالَفَ طَرِيقَةَ التَّوَحُّشِ)[(١)].

ولفظ يونس (فيه ثلاثُ لُغاتٍ: ضَمُّ نُونِه وفَتْحهُ وكَسْرُه، وهو اسمُ علمٍ أَعجميّ ممتنع من الصَّرْف، وقيل: مُشْتَقٌ وَزْنُه يُفْعِل من آنَس يُؤْنِسُ إِيناسـًا بمعنى أَبْصَر، قال الله تعالى: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ﴾، وقيلَ من الأُنْسِ ضدّ الوَحْشة، سُمِّيَ بِه لأُنْسِهِ بطاعةِ الله، أَو لأَنَّه أَبصر رُشْدَه في العبادة)[(٢)].

فكأن تسمية السورة بهذا الاسم، - ومعلوم أنه علمٌ لأحد الأنبياء وهو يونس عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- إيماءٌ إلى ما ينبغي على الداعي إلى الإيمان بالله أن يتحلى به من التلطف في الدعوة، وسعة الصدر وإرخاء عنان

---

(١) ينظر مقاييس اللغة لابن فارس، مادة أ ن س، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٩٧٩م.

(٢) ينظر بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي، ج٦ ص٥٣.

الصبر، والتحلي بالحكمة التي وصف الله بها آيات كتابه في مطلع السورة ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١﴾(الآية: ١)

يستمد هذا من أمرين:

الأول: المعنى اللغوي للفظ يونس الدال على الظهور والإيناس وعدم الوحشة، خصوصا بمجيئه في صيغة المضارعة الدالة على التجدد والحدوث مرة بعد مرة، (قال الفراء يونُس ويونِس ويونَس: ثلاث لغات في اسم رجل. وحكى فيه الهمز أيضا)(١).

فينبغي على من يتصدى للدعوة إلى الإِيمَان بالله أن يتلطف ويصبر ولا يعجل، وأن يدعو إلى ربه بالحكمة، والموعظة الحسنة.

الثاني: كون اسم يونس عليه السلام قد غدا علامة أو رمزا لما كان منه مع قومه، من مغاضبته لهم وعدم صبره عليهم، فمعلوم أن هذه القصة كانت مُتداوَلَةً في عهد نزول السورة، حيث إنها قد وردت في سفر يونان أحد أسفار العهد القديم التي كانت متداولة عند اليهود والنصارى في بيئة النبي صلى الله عليه وسلم (٢) فإن هذا الاسم يحيل إلى المخزون الثقافي لدى المتلقي، ويصبح عتبة للنص دالة مفعمة بالعديد من المعاني على ما يراه أهل السميائية في النقد الحديث، فهو عنوان للسورة (وكل عنوان حكم، أي زاوية نظر تلخص المعطيات... وتُوَجِه وترسي قواعد للقراءة والتأويل وإنتاج

(١) ينظر الصحاح للجوهري، مادة أ ن س، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين بيروت، ط٤، ١٩٨٧م.

(٢) ينظر التفسير الحديث لمحمد عزت دروزة، ج٣ ص٤٩٥، وج ١ ص٣٩١، دار إحياء الكتب العربية القاهرة، ١٣٨٣ هـ.

المعاني... وهو أيضـًا وصف، إنه يصف، أي ينشر – عبر عرض " موضوعي ومحايد " – معرفة تتصل بأشياء وفضاءات وكائنات في أوضاع وحالات متنوعة... وهو أيضـًا تعريف، والتعريف تقليص لزاوية النظر، فمنه ينبثق التحديد والتخصيص. وكل "عنوان" يروم الكشف عن دلالات صاغ التاريخ و"النص الثقافي" حدودها ومعالمها)[١].

وقد ذكر ابن أبي الإصبع بابـًا في كتابه بديع القرآن أسماه بباب العنوان[٢]، وهو قريب مما ذكره نقاد السميائية، إلا أنه يجعله في متن الكلام، مدلولاً به على علم من العلوم، أو قصة من القصص السالفة، وإذا ما وسعنا مفهوم هذا المصطلح عنده، ليشمل عناوين النصوص، فإنه سيتطابق مع مقررات المنهج السميائي فيما يخص عتبات النص.

وقد أمر الله نبيه محمداً بالصبر على قومه ونهاه عن أن يكون مثل صاحب الحوت، فقال تعالى في سورة القلم: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴿٤٨﴾ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ

---

(١) ينظر السميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها سعيد بن كراد، ص١٦١ بتصرف شديد، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية – اللاذقية، ط٣، ٢٠١٢م.

(٢) يعرفه بقوله: (هو أن يأخذ المتكلم في غرض له من وصف، أو فخر، أو مدح، أو عتاب، أو هجاء، أو غير ذلك من الفنون، ثم يأتي لقصد تكميله وتوكيده بأمثلة من ألفاظ تكون عنوانات لأخبار متقدمة وقصص سالفة، ومنه نوع عظيم جدا وهو ما يكون عنوان العلوم (وذلك) أن تُذكَر في الكلام ألفاظ تكون مفاتيح لعلوم، ومداخل لها) ينظر بديع القرآن لابن أبي الإصبع المصري، ج٢ ص٢٥٧ تح: حفني شرف، دار نهضة مصر.

وَهُوَ مَذۡمُومٞ ﴿٤٩﴾ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ (الآيات: ٤٨ – ٥٠)

يقول البقاعي: (ولما كان حاصل قصة يونس – على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام – أنه استثقل الكرامة بالرسالة لما فيها من الأمور الشديدة من معالجة الخلق فامتحن، كان سبباً لقبوله ذلك، ثم كان سبب إسلام قومه إدناء العذاب منهم وتقريب غشيانه لهم، أشار له بقصته إلى أنه يراد إعلاؤه – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى سائر الأنبياء – وإعلاء أمته على سائر الأمم بما يحتاج إلى صبر على ما يستثقل من ضر أو أمر شديد مر فقال: ﴿وَلَا تَكُن﴾ أي ولا يكن حالك في الضجر والعجلة إلى غير ذلك... ﴿كَصَاحِبِ﴾ أي كحال صاحب {الحوت} وهو يونس بن متى عليه الصلاة والسلام {إذ} أي حين، والعامل في هذا الظرف المضاف المحذوف من الحال ونحوها، أو يكون التقدير: لا يكن حالك كحاله يحصل لك مثل ما حصل له..)[1].

فعلى كل داعية إلى الإِيمَان بالله عز وجل، أن يتحلى بالصبر، ويتجمل برحابة الصدر، وأن يتخذ من الإيناس والحكمة طريقاً لدعوته، وبهذا تتجلى العلاقة بين تسمية السورة بيونس وبين حديثها عن الإيمان الذي احتفت به أيما احتفاء.

۞۞۞۞۞

(١) ينظر نظم الدرر للبقاعي ج٢٠، ص٣٣١ بتصرف، دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة، بدون.

رابعا: السر في تسمية السورة بيونس، ولم تُذكر قصته فيها مُفَصَّلَةً

وما سبق من إجابة عن السؤال الأول، يصلح أن يكون جوابا عن السؤال الثاني لماذا سميت سورة يونس بهذا الاسم، على الرغم من أنها لم تُفَصِّل القول في قصته، وليس فيها سوى إشارة إلى ما كان من خصوصية لقومه- فيما أرى - بالعفو عنهم وقبول إيمانهم بعد معاينتهم العذاب، ويمكن أن يضاف إليه أن تسمية السورة باسم يونس عليه السلام يومئ إلى أن الخصوصية التي اختص الله بها قوم يونس قد كانت بسبب ما فعله يونس معهم من المغاضبة وعدم الصبر عليهم، فالله خالقهم، وهو رحيم بعباده، قد مَنَّ عليهم بهذا العفو تعويضا لهم بسبب ما كاد يلحق بهم من عجلة رسولهم عليهم، وقد أرجع الطاهر بن عاشور الحكمة في نجاة قوم يونس إلى أمرين أحدهما علم الله بأنهم لم يكذبوا تصميماً على الكفر واستخفافا بعظمة الله وإنما شكوا في صدق يونس، وثانيهما ما كان من مغاضبة يونس لهم، فَقَدَّرَ الله إيمان قومه تأديبا ومعاتبة له(١).

فَإِطْلاق لفظ يونس عَلَمـًا على هذه السورة، وجعله عنوانـًا لها، يتضمن ذلك كله، يتضمن الإشارة إلى المعنى اللغوي لهذا اللفظ، وما يجب على الداعين إلى الإيمَان بالله من اعتناقه، ويتضمن الإشارة إلى قصة يونس مع قومه – على أساس كون الاسم علامةً عليها وإشارةً لها-، ويتضمن الإلماح إلى تلك الخصوصية التي مَنَّ الله بها على قوم يونس فمن سنن الله عز وجل أن معاينة العذاب تحول دون قبول الإيمان فيغدو حينئذ إيمانـًا غير نافع إلا ما

---

(١) ينظر التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج١١ ص٢٩١، بتصرف شديد، الدار التونسية للنشر تونس، ١٩٨٤م.

كان من قوم يونس ولذا فإني أرجح القول بأن الله قد خصهم بالعفو وقبول الإيمان بعد معاينتهم العذاب خلافا لمن ذهب إلى أنهم قد آمنوا في الوقت الذي ينفع فيه الإيمان، مُنكراً خصوصيتهم.

فالسورة تحتفي بالحديث عن الإيمان وعن سنن الله التي لا تتخلف في هذا الشأن فمن حقت عليه كلمة الله لا يؤمن، ومن آمن بعد معاينة العذاب لا ينفعه إيمانه، إلا ما كان من قوم يونس فذلك هو الاستثناء الوحيد لهذه القاعدة ولذا فإن السورة قد سميت بيونس إشارة إلى هذا الاستثناء، وأنه لا يخرق القاعدة، ولذا فقد صيغت الآية في أسلوب قصري طريقه النفي والاستثناء، النفي المُضمن في أداة التحضيض (لولا)، وكان من الممكن أن تُساق قصة قوم يونس بغير هذا الطريق أو تبرز في ثوب غير هذا لو لم يكن الاستثناء مقصودا، وليس بنا حاجة إلى حمل النص على غير ظاهره، فالأمر مَرَدُّه إلى مشيئة الله يعفو أو يعذب، ولا راد لمشيئته، كما وَطَّأت لهذا سورة التوبة التي سبقت سورة يونس.

ومن عادة العرب في التسمية أنهم يأخذون الأسماء (مِنْ نَادِرٍ أَوْ مُسْتَغْرَبٍ يَكُونُ فِي الشَّيْءِ مِنْ خَلْقٍ أَوْ صِفَةٍ تَخُصُّهُ أَوْ تَكُونُ مَعَهُ أَحْكَمُ أَوْ أَكْثَرُ أَوْ أَسْبَقُ لِإِدْرَاكِ الرَّائِي لِلْمُسَمَّى وَيُسَمُّونَ الْجُمْلَةَ مِنَ الْكَلَامِ أَوِ الْقَصِيدَةَ الطَّوِيلَةَ بِمَا هُوَ أَشْهَرُ فِيهَا وَعَلَى ذَلِكَ جَرَتْ أَسْمَاءُ سُوَرِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ)[1].

ولذا فقد سُميت سورة يونس بهذا الاسم للحكم النادر الواقع فيها حكاية عن قوم يونس.

---

(١) ينظر البرهان في علوم القرآن للزركشي، ج١ ص٢٧٠.

ويؤيد القول بأنهم آمنوا بعد معاينة العذاب لفظ كشفنا في قوله تعالى:
﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ (الآية: ٩٨)

ولا يكون الكشف إلا بعد الوقوع، أو قربه يقول البغوي (وَاخْتَلَفُوا فِي أَنَّهُمْ هَلْ رَأَوُا الْعَذَابَ عِيَانًا أَمْ لَا؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: رَأَوْا دَلِيلَ الْعَذَابِ؟ وَالْأَكْثَرُونَ عَلَى أَنَّهُمْ رَأَوُا الْعَذَابَ عَيَانًا [بِدَلِيلِ] قَوْلِهِ: كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ، وَالْكَشْفُ يَكُونُ بَعْدَ الْوُقُوعِ أَوْ إِذَا قَرُبَ)(١).

وليست هناك حاجة أيضًا إلى صرف لفظ كشفنا عن ظاهره، وإلا لاستعمل القرآن لفظًا غيره.

وقد صرح الطبري بأنهم قد استثنوا من القاعدة حيث تيب عليهم بعد نزول العقوبة بهم فقال (ومعنى الكلام: فما كانت قرية آمنت عند معاينتها العذاب، ونزول سَخَط الله بها، بعصيانها ربها واستحقاقها عقابه، فنفعها إيمانها ذلك في ذلك الوقت، كما لم ينفع فرعون إيمانه حين أدركه الغرق بعد تماديه في غيّه، واستحقاقه سَخَط الله بمعصيته = إلا قوم يونس، فإنهم نفعهم إيمانهم بعد نزول العقوبة وحلول السخط بهم، فاستثنى الله قوم يونس من أهل القرى الذين لم ينفعهم إيمانهم بعد نزول العذاب بساحتهم، وأخرجهم

(١) ينظر تفسير البغوي ج٢ ص٤٣٤، تح: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ.

منهم، وأخبر خلقه أنه نفعهم إيمانهم خاصة من بين سائر الأمم غيرهم... وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل)[١].

وذكر الماوردي أيضا القول بخصوصية قوم يونس في أحد تأويلين للآية فقال (وفيه وجهان:

أحدهما: أنهم تابوا قبل أن يروا العذاب فلذلك قبل توبتهم، ولو رأوه لم يقبلها كما لم يقبل من فرعون إيمانه لما أدركه الغرق.

الثاني: أنه تعالى خَصَّهم بقبول التوبة بعد رؤية العذاب، قال قتادة: كشف عنهم العذاب بعد أن تدلى عليهم ولم يكن بينهم وبين العذاب إلا ميل)[٢].

وأيد السمعاني القول باستثناء قوم يونس بالعفو عنهم بعد معاينتهم العذاب ورد الأمر إلى مشيئة الله الذي يفعل ما يشاء ولا راد لقضائه فقال: (وَاخْتلف القَوْل فِي أَنهم هَل رَأَوْا الْعَذَاب عيَانًا أَو رَأَوْا دَلِيل الْعَذَاب؟ فالأكثرون على أَنهم رَأَوْا الْعَذَاب عيَانًا. قَالَ قَتَادَة: تدنى عَلَيْهِم الْعَذَاب حَتَّى صَار بَينهم وَبَين الْعَذَاب قدر ميل. وَقَالَ بَعضهم: رَأَوْا دَلِيل الْعَذَاب، وَلم يرَوا عين الْعَذَاب.

---

(١) ينظر تفسير الطبري، ج١٥ ص٢٠٤ وما بعدها بتصرف، تح: أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠ه، ٢٠٠٠م.

(٢) ينظر النكت والعيون للماوردي ج٢ ص٤٥١، تح: السيد عبد المقصود عبد الرحيم، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، بدون.

وَالْقَوْل الأول أصح؛ بِدَلِيل قَوْله: ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ والكشف إِنَّمَا يكون بعد وُقُوع الْعَذَاب أَو قرب الْعَذَاب. فَإِن قَالَ قَائِل: كَيفَ قبل إِيمَانهم عِنْد المعاينة، وَلم يقبل إِيمَان غَيرهم، وَقد قَالَ فِي مَوضِع آخر: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ دلّ أَن الْإِيمَان المقبول هُوَ الْإِيمَان بِالْغَيْبِ؟

الْجَوَاب: أَن قوم يُونُس استثنوا من هَذَا الأَصْل بِنَصّ الْقُرْآن، وَالله تَعَالَى يفعل مَا يَشَاء وَلَا سُؤال عَلَيْهِ فِيمَا يفعل)[1].

ويرى أبو الفرج بن الجوزي أن العفو عن قوم يونس بعد معاينتهم العذاب قد كان خصوصية لهم، أو أن العذاب لم يباشرهم مثلما باشر فرعون، أو أن الله قد علم صدق نيتهم في التوبة بخلاف غيرهم ممن أُهْلِكُوا فقال: (فإن قيل: كيف كُشف العذاب عن قوم يونس بعد إِتيانه إِليهم، ولم يُكشَف عن فرعون حين آمن؟ فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أن ذلك كان خاصاً لهم. والثاني: أن فرعون باشره العذاب، وهؤلاء دنا منهم ولم يباشرهم، فكانوا كالمريض يخاف الموت ويرجو العافية، فأما الذي يعاين، فلا توبة له، ذكره الزجاج. والثالث: أن الله تعالى علم منهم صدق النيات، بخلاف مَن تقدَّمهم من الهالكين، ذكره ابن الأنباري)[2].

ويؤيد القول بأن الأمر كله مرده إلى حكمة الله ومشيئته التصريح في الآية التالية لهذه الآية بالمشيئة في أسلوب شرطي وأداته لو الامتناعية بقوله تعالى:

---

(1) ينظر تفسير السمعاني، ج٢ ص٤٠٦، تح: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس، دار الوطن الرياض السعودية، ط١، ١٤١٨ه، ١٩٩٧م.

(2) ينظر زاد المسير في علم التفسير لأبي الفرج الجوزي، ج٢ ص٣٥٢، تح: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي بيروت، ط١، ١٤٢٢ هـ.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ (الآيات: ٩٨ – ١٠٠)

مم سبق يتبين أن السورة سُميت بيونس على الرغم من أن قصته لم تُفَصَّل فيها مثلما فُصِّلَت في سور أخرى، لتسجيل ذلك الاستثناء الذي اختص به قوم يونس، وللإلماح إلى أن هذا الاستثناء، وتلك الخصوصية قد كانا بسبب ما كان من يونس مع قومه من عجلته عليهم ومغاضبته لهم

وهذا الاستثناء لصيق الصلة بحديث السورة عن الإيمان، وذلك أنه قد ورد فيها بيان الأوقات التي ينفع فيها الإيمان، حيث ينفع قبل وقوع العذاب، والأوقات التي لا ينفع فيها فالقاعدة أن الإيمان لا ينفع عند وقوع العذاب مثلما كان مع فرعون الذي أعلن إسلامَهُ عند غرقه، إلا في حالة واحدة وهي حالة قوم يونس الذين مَنَّ الله عليهم بقبول إيمانهم عند إخلاصهم التوبة بعد معاينتهم لعذابه، ولذا سميت السورة بيونس (١).

❁❁❁❁❁

(١) يرى الطاهر بن عاشور أن سر تسمية السورة بيونس أنها قد انفردت بذكر خصوصية لقوم يونس بالعفو عنهم عند إيمانهم بعد أن توعدهم رسولهم بنزول العذاب، وهذا القول قريب مما ذكرته إلا أنني أرى أن الخصوصية في كشف العذاب بعد معاينتهم له، وأي خصوصية في العفو عنهم بعد الإيمان وقد فصلتُ القول في هذا ينظر التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج١١ ص٧٧.

خامسا: المقصود الأعظم للسورة وعلاقته بحديثها عن الإيمان

وللإجابة عن السؤال الثالث ما الغرض العام، أو المقصود الأعظم الذي سيقت السورة من أجله، وما علاقته بحديثها عن الإيمان نقول: إن كثيرا من العلماء الذين تطرقوا للحديث عن الغرض العام من السورة أو عن مقصودها الأعظم قد ذكروا أنه إثبات تنزيل القرآن وأنه من عند الله وحده لأنه لا يمكن لغيره سبحانه الإتيان بمثله، ومن هؤلاء العلماء رضوان الله عليهم البقاعي حيث قال (ومقصودها: وصف الكتاب بأنه من عند الله، لما اشتمل عليه من الحكمة وأنه ليس إلا من عنده سبحانه، لأن غيره لا يقدر على شيء منه.

وذلك دال بلا ريب على أنه واحد في ملكه، لا شريك له في شيء من أمره.

وتمام الدليل على هذا: قصة قوم يونس عليه السلام، بأنهم لما آمنوا،

عند المخايل كشف عنهم العذاب، فدل - قطعًا - على أن الآتي به إنما هو، الله الذي آمنوا به، إذ لو كان غيره، لكان إيمانهم به سبحانه موجبًا للإيقاع، بهم، ولو عُذِّبُوا كغيرهم لقيل: هذه عادة الدهر، كما قالوا: ﴿قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾، ودلَّ ذلك على أن عذاب غيرهم من الأمم، إنما هو من عند الله لكفرهم، لما اتسق من ذلك طرداً بأحوال سائر الأمم، من أنه كلما وجد الإصرار على التكذيب، وجد العذاب وعكسًا: من أنه كلما انتفى في وقت يقبل قبول التوبة، انتفى، والله الموفق)[1].

---

(١) ينظر مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور للبقاعي، ج٢ ص١٦٤، مكتبة المعارف الرياض، ط١، ١٩٨٧م.

وهذا رأي معتبر لأن السورة في مطلعها وفي ختامها وفي كثير من آياتها قد احتفت بالقرآن أيما احتفاء، مدحا له، وتحديًا به، وأمراً باتباعه، والإيمان بالقرآن وتصديق ما تضمنه من إنذار وتبشير هو السبيل القويم للإيمان بالله وبرسوله، قال تعالى: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ①﴾ (الآية: ١).

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ⑮ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ⑯ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ⑰﴾ (الآيات: ١٥ – ١٧)

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ㊲ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ㊳ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ㊴ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ㊵﴾ (الآيات: ٣٧ – ٤٠)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧﴾ (الآية: ٥٧)

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ٩٤ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٩٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٩٧﴾ (الآيات: ٩٤ -٩٧)

ض

﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ١٠٨ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ١٠٩﴾ (الآيات ١٠٨ - ١٠٩)

ويؤيد الشيخ عبد المتعال الصعيدي هذا الرأي فيقول: (يقصد من هذه السورة إثبات تنزيل القرآن وهي في هذا تنقسم إلى أربعة أقسام: أولها في إبطال شبههم عليه، وثانيها في تحديهم به، وثالثها في دعوتهم إلى تصديقه بطريقة الترغيب والترهيب، ورابعها في خاتمة تناسب مقام هذه السورة)[1].

حتى إن أحد الباحثين الذين يؤسسون لنظرية خاصة في الوحدة القرآنية قد رأى أن السورة كلها من أولها إلى آخرها، تفصيل لآية في مطلع سورة البقرة وهي قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢﴾(الآية: ٢).

(١) ينظر النظم الفني في القرآن الشيخ عبد المتعال الصعيدي، ص١٣٧.

(٢) ينظر الأساس في التفسير لسعيد حوى، ج٥ ص٢٤١٣ وما بعدها، دار السلام القاهرة، ط٦، ١٤٢٤ هـ.

وعلى هذا الرأي فإن العلاقة بين مقصود السورة إذا كان هو الحديث عن قضية الوحي وأنه حق يجب اتباعه والتصديق به، وبين حديثها عن الإيمان، بالإضافة إلى كون الوحي هو السبيل المفضي إلى الإيمان بالله وبرسله، أن الإيمان لصيق الصلة بأحد موضوعين تضمنهما ذلك الوحي وهما الإنذار والتبشير، إنذار الكافرين والمشركين بما ينتظرهم من العذاب، وتبشير المؤمنين بما أُعِدَّ لهم من نعيم مقيم، وآية ذلك قوله تعالى في مطلع السورة مفسرا المقصود بالوحي أنه الإنذار للناس والتبشير للمؤمنين: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ٢﴾ (الآيات: ١ – ٢)

يقول ابن عطية: (ثم فسر الوحي وقسمه على النذارة للكافرين والبشارة للمؤمنين)[١]

وقال الفخر الرازي: (أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا بَيَّنَ أَنَّهُ أَوْحَى إِلَى رَسُولِهِ، بَيَّنَ بَعْدَهُ تَفْصِيلَ مَا أَوْحَى إِلَيْهِ وَهُوَ الإنذار والتبشير. أَمَّا الْإِنْذَارُ فَلِلْكُفَّارِ وَالْفُسَّاقِ لِيَرْتَدِعُوا بِسَبَبِ ذَلِكَ الْإِنْذَارِ عَنْ فِعْلِ مَا لَا يَنْبَغِي، وَأَمَّا التَّبْشِيرُ فَلِأَهْلِ الطَّاعَةِ لِتَقْوَى رَغْبَتُهُمْ فِيهَا وَإِنَّمَا قَدَّمَ الْإِنْذَارَ عَلَى التَّبْشِيرِ لِأَنَّ التَّخْلِيَةَ مُقَدَّمَةٌ عَلَى التَّحْلِيَةِ، وَإِزَالَة مَا لَا يَنْبَغِي مُقَدَّمٌ فِي الرُّتْبَةِ عَلَى فِعْلِ مَا يَنْبَغِي) [٢].

(١) ينظر المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية، ج٣ ص١٠٣، تح: عبدالسلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ١٤٢٢ هـ.

(٢) ينظر مفاتيح الغيب للرازي، ج١٧ ص١٨٧.

وهناك رأي آخر في بيان المقصود الأعظم من السورة، وهو الرأي الذي أميل إليه، مطمئن النفس غير رافض لسابقه، وخلاصته أن (القضية الأساسية التي يتكئ عليها السياق كله في سورة يونس هي قضية الألوهية والعبودية، وتجلية حقيقتهما، وبيان مقتضيات هذه الحقيقة في حياة الناس. أما سائر القضايا الأخرى التي تعرضت لها السورة كقضية الوحي، وقضية الآخرة، وقضية الرسالات السابقة.. فقد جاءت في صدد إيضاح تلك الحقيقة الكبرى وتعميقها وتوسيع مدلولها وبيان مقتضياتها في حياة البشر واعتقادهم وعبادتهم وعملهم)[1].

(فسورة يونس من السور التي رفعت راية الوحدانية، وأفاضت في دلائل الوجود الأعلى، وشرحت من آفاق الكون ما يشير إلى عظمة الله)[2]

ومما يدعم هذا الرأي ما ورد من أن سورة يونس على المشهور من أقوال العلماء سورة مكية بالإجماع[3]، وإذا عرفنا أن من أهم خصائص السور المكية "الدعوة إلى التوحيد، وإثبات الرسالة، وإثبات اليوم الآخر، والوعد والوعيد، وجدال المشركين بالبراهين العقليّة والآيات الكونيّة"[4]، تبين لنا

---

(١) ينظر في ظلال القرآن السيد قطب، مج٣ ص١٧٥٣، دار الشروق بيروت القاهرة، ط١٧، ١٤١٢ هـ.

(٢) ينظر نحو تفسير موضوعي محمد الغزالي، ص١٦٢، دار نهضة مصر، ط١، بدون.

(٣) ينظر الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ج١ ص٤٧، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١٩٧٤م.

(٤) ينظر المقدمات الأساسية في علوم القرآن لعبد الله العنزي، ص٥٨، مكتب البحوث الإسلامية ليدز بريطانيا، ط١، ٢٠٠١م.

أن هذه السورة قد سارت على نهج أخواتها من السور المكيات في معالجة أمور العقيدة على اختلافها، وبهذا تتضح العلاقة الوثيقة بين مقصود السورة الأعظم – سواء كان قضية الوحي، أو قضية التوحيد – وبين حديثها المُكَثَّف، المتسق المتماسك عن الإيمان على النحو الآتي بيانه.

❁❁❁❁❁

المبحث الثاني :مظاهر ترابط آيات الحديث عن الإيمان وتلاحمها وبلاغة تواليها

إن من عجيب أمر القرآن، أنك إذا أتيته من أي جهة طالبـًا منه أن يبوح لك بسر من أسراره، مُلِحًّا في طلبك، مخلصا النية لله عز وجل، فإنه يجود عليك بما تريد وزيادة، فلا يردُّ مريديه صفر اليدين أبدا، وإنما يعودون مُفعمي الجراب، بما لَذَّ. من الأسرار وطاب

ومن ذلك أنك إذا عمدت إلى مجموعة من آياته تتناول موضوعـًا واحدا، ثم سلكتها في سلك واحد فغدت عقداً محكم النظم، ثم أعدت النظر إليها خُيِّل إليك أنها قد كانت على هذه الصورة من أول الأمر، ولم تكن كل جوهرة من جواهر ذلك العقد، لؤلؤةً مضيئة في سياق سورة تتناجى مع سابقاتها ولاحقاتها لتأدية مهمة جليلة في الإعراب عن مقصود السورة التي تؤدي دورا مهما أيضا في سياق القرآن بأكمله

ولا فرق في ذلك بين أن تجمع عددا من الآيات في سور مختلفة، أو أن تجمع عددا منها في سورة واحدة، المهم أن يجمع بين تلك الآيات موضوع واحد، وأنت واجد لا محالة في كلٍ تناسقـًا عجيبا، وتسلسلا منطقيا، كأن هذه الآيات قد سُبِكَت على هذه الشاكلة من أول أمرها ولم تكن لكل آية حياتها الخاصة ووظيفتها التي تؤديها في سياق سورتها.

وأنت واجد ذلك واضحا جدا في حديث سورة يونس عن الإيمان، فكل آية من الآيات التي ذُكر فيها لفظ الإيمان بأحد مشتقاته، تتآزر مع صاحباتها السابقات أو اللاحقات في رسم صورة كلية لهذا الحديث، بحيث يتوفر للموضوع المتضمن فيها جميع عناصر الترابط والإحكام.

وبيان ذلك أن السورة قد افتتحت حديثها عن هذا الموضوع بجملة فعلية أمرية في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [سورة يونس:٢]، فحملت البشرى للمؤمنين من أول الأمر، ثم تتابعت الآيات بعد ذلك تُفَصِّل القول في بيان تلك البشرى، فجاء قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾، (أي بالعدل الذي لا جور فيه أي يجزيهم متلبساً بالقسط أو متلبسين به أو بسبب قسطهم، والمراد به هنا الإيمان بدليل المقابلة في قوله بما كانوا يكفرون)[١]

وقد اشتملت هذه الآية على زيادة ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وبينت أنهم سيجازون بالعدل أو بسبب إيمانهم، ولم تُفَصِّل القول في ماهية ذلك الجزاء، لتأتي الآية الثالثة في حديث السورة عن الإيمان لتحدد جزاء المؤمنين، وما ينتظرهم من جنات النعيم فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٩﴾ (الآية: ٩)

فجاءت هذه الآية مُفَصِّلَةً القول في جزاء الإيمان، ولكنها صيغت في صياغة مُؤَكَّدة، حيث افتتحت ب إنَّ، وكأنها ترد على شاك أو منكر لما ذُكر في الآية السابقة من مجازاة الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط، بالإضافة إلى أنها ذكرت أنه لابد من الهداية الربانية(ففي النظم الكريم إشعارٌ بأن مجردَ

(١) ينظر فتح البيان في مقاصد القرآن لصديق خان القِنَّوجي، ج٦ ص١٥، راجعه عبد الله الأنصاري، المكتبة العصرية بيروت، ١٩٩٢م.

الإيمانِ والعملِ الصالحِ لا يكفي في الوصول إلى الجنة بل لا بد بعد ذلك من الهداية الربانية وأن الكفرَ والمعاصيَ كافيةٌ في دخول النارِ)[1].

وهذه الآية ترتبط ارتباطـًا وثيقا بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ (الآية: ١٠٠)

وذلك لأن الآية الأخيرة توضح المقصود بقوله: يهديهم ربهم، وأنه الإذن الربَّاني بالإيمان، ويؤيد ذلك صياغة الآية صياغةً مؤكدة شد ما يكون التوكيد، حيث جاءت في جملة قَصْرِيَّة، طريقها النفي والاستثناء، مثلما جاءت سابقتها مُؤَكَّدة أيضا، مما يدل على خطر تلك القضية المتضمنة فيهما، وأنها مما يستحق التوثيق والتحقيق، وأنها من القضايا التي يعارضها الشاكون المنكرون..

ولست براغب ولوج تلك المعمعة[2] الجدالية العقدية التي دارت رحاها بين الفرق الإسلامية على اختلافها في بيان سبب الهداية إلى الجنة أيكون الإيمان وحده استناداً إلى ظاهر النص يهديهم ربهم بإيمانهم، أم يكون الإيمان مضمومـًا إليه العمل الصالح، استنادا إلى الجمع بينهما في صلة

---

(١) ينظر إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود، ج٤ ص١٢٣، دار إحياء التراث العربي ببيروت.

(٢) ينظر فتح البيان للقنوجي ج٦ ص٢٠ وما بعدها للوقوف على تفصيل خلاف العلماء في بيان الموجب لدخول الجنة أهو الإيمان وحده، أو أنه الإيمان مقترنا به العمل الصالح، وقد ذكرت في التمهيد مذهب أهل السُنَّة.

الموصول في قوله: إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، أقول لست مدليًا بدلوي في هذه القضية، فقد أفاض فيها العلماء كل على حسب وجهته ومذهبه، ولكني أود فقط الإشارة إلى أن الآية الثانية من آيات الحديث عن الإيمان في السورة قد جمعت بين الإيمان والعمل الصالح عند حديثها عن الجزاء بالقسط، قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ۝٤﴾ (الآية: ٤)

ثم جاءت الآية الثالثة لتجمع بينهما أيضا عند حديثها عن تفصيل ذلك الجزاء قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝٩﴾ (الآية: ٩)

وذلك مُشْعِرٌ بوجوب اقترانهما لاستحقاق الجزاء المتمثل في جنات النعيم.

قال الألوسي: (والمراد بهذا الإيمان الذي جعل سببا لما ذكر الإيمان الخاص المشفوع بالأعمال الصالحة لا المجرد عنها ولا ما هو الأعم ولا ينبغي أن ينتطح في ذلك كبشان)[1].

---

(١) ينظر روح المعاني للألوسي، ج٦ ص٧٠، تح: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ١٤١٥ هـ.

ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٦﴾ (الآية: ٢٦)

حيث إن المراد بقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾ أي أحسنوا العبادة أو العمل بفعل المأمورات واجتناب المنهيات، (قال ابْنُ عَبَّاسٍ: مَعْنَاهُ: لِلَّذِينِ ذَكَرُوا كَلِمَةَ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَقَالَ الْأَصَمُّ: مَعْنَاهُ: لِلَّذِينِ أَحْسَنُوا فِي كُلِّ مَا تَعَبَّدُوا بِهِ، وَمَعْنَاهُ: أَنَّهُمْ أَتَوْا بِالْمَأْمُورِ بِهِ كَمَا يَنْبَغِي، وَاجْتَنَبُوا الْمَنْهِيَّاتِ مِنَ الْوَجْهِ الَّذِي صَارَتْ مَنْهِيًّا عَنْهَا.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: أَقْرَبُ إِلَى الصَّوَابِ لِأَنَّ الدَّرَجَاتِ الْعَالِيَةَ لَا تَحْصُلُ إِلَّا لِأَهْلِ الطَّاعَاتِ)[1].

ثم تأتي الآية الرابعة في حديث السورة عن الإيمان، لِتُبَيِّنَ عاقبة التكذيب، ومصير الكافرين الذين يظلمون أنفسهم بكفرهم، والذين قد علم الله منهم عدم إيمانهم ولو طالت أعمارهم، فأهلكهم بعد أن أقام الحجة عليهم بإرسال الرسل، ثم ختمت الآية ببيان أن ذلك الإهلاك للمُصِرِّينَ، هو سنة الله في خلقه فبمثله يجازي كل مجرم قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٣﴾ (الآية: ١٣)

(١) ينظر مفاتيح الغيب للرازي، ج١٧ ص٢٤٠.

يقول الزمخشري: (وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ يجوز أن يكون عطفًا على ظلموا، وأن يكون اعتراضًا واللام لتأكيد النفي، يعني: وما كانوا يؤمنون حقًا، تأكيداً لنفى إيمانهم، وأن الله قد عَلِم منهم أنهم يُصِرُّون على كفرهم، وأن الإيمان مُستبَعَدٌ منهم. والمعنى: أن السبب في إهلاكهم تكذيب الرسل، وَعِلْم الله أنه لا فائدة في إمهالهم بعد أن ألزموا الحجة بِبَعْثِه الرسل كَذلِكَ مثل ذلك الجزاء يعني الإهلاك نَجْزِي كل مجرم، وهو وعيد لأهل مكة على إجرامهم)[1].

فهذه الآية مرتبطة بسابقتها، حيث ذكرت الآية السابقة الجزاء على الإيمان، مع بيان هداية الله للمؤمنين، وذكرت هذه الآية جزاء الشرك والكفر والتكذيب، مع بيان أن الله لم يهد الذين أُهلكوا لعلمه الأَزَلي بعدم إيمانهم.

كما أن هذه الآية تُعَدُّ تفصيلا للإنذار الوارد في مطلع السورة في قوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾.

وهي في الوقت نفسه إجمال سيأتي تفصيله عند الحديث عن الأمم التي أُهْلِكَتْ، مثل قوم نوح، وقوم فرعون، وغيرهم، تلك الآيات التي تندرج تحت حديث السورة عن الإيمان.

(١) ينظر الكشاف للزمخشري ج٢ ص٣٣٣، دار الكتاب العربي بيروت، ط٣، ١٤٠٧ هـ.

وفيها أيضـًا تعليل لعدم قبول إيمان فرعون عند معاينته العذاب، بخلاف قوم يونس الذين قُبِل إيمانهم، ونفعهم ذلك الإيمان، فَكُشِفَ عنهم عذاب الخزي، وذلك هو علم الله بما يكون من كل فريق.

ثم تأتي الآية الخامسة من الآيات المشتملة على ذكر الإيمان، لِتُقَرِّرَ ولتُبَيِّنَ سُنَّةً ربَّانيةً تقضي بعدم إيمان الفاسقين قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٣٣﴾ [سورة يونس:٣٣].

قال ابن عطية: (وهذه الآية إخبار أن في الكفار من حتم بكفره وقضى بتخليده)[1].

ويقول أبو حيان الأندلسي: (وَمَعْنَى فَسَقُوا: تَمَرَّدُوا فِي كُفْرِهِمْ وَخَرَجُوا إِلَى الْحَدِّ الْأَقْصَى فِيهِ، وَأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بَدَلٌ مِنْ كَلِمَةِ رَبِّكَ أَيْ: حَقَّ عَلَيْهِمُ انْتِفَاءُ الْإِيمَانِ. وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِالْكَلِمَةِ عِدَةُ الْعَذَابِ، وَيَكُونُ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ تَعْلِيلًا أَيْ: لِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ. وَيُوَضِّحُ هَذَا الْوَجْهِ قِرَاءَةُ ابْنِ أَبِي عَبْلَةَ: إِنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْكَسْرِ)[2].

فإذا كانت الآية السابقة قد بينت أن الله قد أهلك الذين ظلموا بإصرارهم على الكفر، بعد أن جاءتهم رسلهم بالبينات، وأنه قد عَلِمَ منهم عدم الإيمان، فَإِنَّ هذه الآية تؤكد هذا المعنى، حيث قضى الله على الفاسقين المتمردين في الكفر البالغين الغاية فيه، بعدم الإيمان.

---

(١) ينظر المحرر الوجيز لابن عطية، ج٣ ص١١٨.

(٢) ينظر البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، ج٦ ص٥٤، تح: صدقي محمد جميل، دار الفكر بيروت، ١٤٢٠ هـ.

ونلحظ افتتاح هذه الآية بقوله: كذلك، مثلما خُتِمَت سابقتها به أيضـًا.

كما نلحظ ورود الاسم الموصول اللذين مع اختلاف الصلة، فقد كانت في آيات سابقات جملة آمنوا، ولكنها هنا جاءت بالمقابل فكانت الصلة جملة فسقوا، لإبراز التقابل بين الفريقين.

ثم إن هذه الآية تُعد تأسيسـًا لآية لاحقة في حديث السورة عن الإيمان، وذلك قوله تعالى: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٩٧﴾ [سورة يونس:٩٦-٩٧].

حيث تحيل إليها هذه الآية ولذا فقد كان تركيبها معتمدا على سبق ذكر تلك القضية، بما تضمنته من افتتاح بالتأكيد، وكون صلة الموصول جملة الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ، وقد سبق بيانهم في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٣٣﴾.

كما أنها تُعدُّ تعليلا لإهلاك من أُهلِك من الأمم السابقة كفرعون مثلا، وبهذا يتجلى الترابط والتلاحم بين الآيات الواردات في حديث السورة عن الإيمان.

ثم تأتي الآية السادسة من حديث السورة عن الإيمان، لتؤكد التقابل بين الفريقين بتوظيف ما يسميه البلاغيون طباق الإيجاب والسلب، حيث يضع الفريقين أحدهما مقابل الآخر مُثبِتـًا الإيمان للأول، ونافيـًا له عن الثاني، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ٤٠﴾ (الآية: ٤٠)

فإذا كانت الآيات السابقات قد بَشَّرَتْ الذين آمنوا وبينت ما ينتظرهم من جنات النعيم جزاءً على إيمانهم، وأنذرت الكافرين وبَيَّنت ما كان من إهلاك الأمم السابقة ممن أصروا على تكذيب الرسل وممن قست قلوبهم وساءت أعمالهم، كما بَيَّنت أنَّ عِلْمَ الله المحيط مهيمن على كل ما سيكون في الكون إلى قيام الساعة، فقد علم الله من الأمم الهالكة أنهم لا يؤمنون فأهلكهم، وقد حقت كلمته على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون، فإن هذه الآية تجمع بين الفريقين، لِتُبَيِّنَ أن موقف الخلق من الإيمان بالوحي سيظل منقسمًا ما بقيت الدنيا، إلى فريق يؤمن، وفريق لا يؤمن، والله سبحانه أعلم بالفريقين ولكن الآية خُتِمَت بقوله: ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٤٠﴾ (الآية: ٤٠) تهديدا للكافرين المعاندين.

(قال المفسرون: أخبر الله تعالى عن إيمان قوم عَلِم أنهم يؤمنون، وعن كفر قوم عَلِم أنهم لا يؤمنون، وهذا إخبار عما سبق في علم الله تعالى)[1].

وارتباط هذه الآية بسابقاتها جَلِيٌّ لا مخالفة فيه، ويؤيده عود الضمير في قوله: يؤمن به على القرآن، بالنظر إلى السياق القريب في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٣٧ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٣٨ بَلۡ

(١) ينظر التفسير البسيط للواحدي، ج١١ ص٢٠٤، الناشر: عمادة البحث العلمي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية، ط١، ١٤٣٠ هـ.

كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾ (الآيات: ٣٧ – ٤٠)

أو بالنظر إلى السياق البعيد، سياق حديث السورة عن الإيمان، حيث جرى ذكر الوحي في الآيتين الأولى والثانية من السورة قال تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾ (الآيات ١ – ٢).

ثم تأتي الآية السابعة من حديث السورة عن الإيمان، لِتُبَيِّنَ أن الإيمان لا ينفع عند نزول العذاب، فلم ينفع فرعون إيمانه عند غرقه، وفيها حثٌّ للمخاطبين على مر العصور على المبادرة بالإيمان وعدم تأخيره إلى وقت لا ينفع فيه قال تعالى: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ (الآية: ٥١)

﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ﴾يعني إذا ما نزل العذاب ووقع آمَنْتُمْ بِهِ يعني آمنتم بالله وقت نزول العذاب وهو وقت اليأس وقيل معناه صَدَّقْتُم بالعذاب عند نزوله ودخلت همزة الاستفهام على ثُمَّ للتوبيخ والتقريع آلْآنَ فيه إضمار تقديره يقال لهم آلآن تؤمنون أي حين وقوع العذاب وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ يعني تكذيبا واستهزاءً)[١].

(١) ينظر لباب التأويل في معاني التنزيل، لعلاء الدين الخازن، ج٢ ص٤٤٧، تح: محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ١٤١٥ هـ.

فالآية تذكر القاعدة العامة، والسُنَّة الربَّانية في عدم نفع الإيمان عند معاينة العذاب، وهي توطئة لذكر ما كان من أمر فرعون، ويستثنى منها ما كان مع قوم يونس من العفو عنهم بعد معاينتهم العذاب.

وواضح ارتباط هذه الآية بسابقاتها ولاحقاتها من الآيات التي تضمنت ذكر الإيمان، وارتباطها باسم السورة، حيث إنها قاعدة استُثْنِي منها ما كان من أمر قوم يونس على ما مَرَّ بيانُه.

وأما الآية الثامنة من حديث السورة عن الإيمان فقد جاءت لبيان نفع القرآن للناس، ووصفه بكونه موعظةً وشفاءً، وهدىً ورحمةً، وهي وثيقة الصلة بمطلع السورة وبداية الحديث عن الإيمان، وبالمقصود الأعظم للسورة على رأي من قال: إنه الوحي، أو من قال إنه الدعوة إلى التوحيد، ولا تعارض فالإيمان بالوحي مفض إلى توحيد الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ (الآية: ٥٧)

(أي قد جاءكم كتاب جامع للحكمة العملية الكاشفة عن محاسن الأعمال ومقابحها المرغبة في المحاسن والزاجرة عن المقابح، والحكمة النظرية التي هي شفاء لما في الصدور من الشكوك وسوء الاعتقاد وهدى إلى الحق واليقين ورحمة للمؤمنين، حيث أنزلت عليهم فنجوا بها من ظلمات الضلال إلى نور الإيمان، وتبدلت مقاعدهم من طبقات النيران بمصاعد من درجات الجنان، والتنكير فيها للتعظيم)[1].

(١) ينظر أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي، ج٣ ص١١٦، تح: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط١، ١٤١٨ هـ.

(هذه آية خُوطِبَ بها جميع العالم، و «الموعظة»: القرآن لأن الوعظ إنما هو بقول يأمر بالمعروف ويزجر ويرقق ويوعد ويعد، وهذه صفة الكتاب العزيز، وقوله مِنْ رَبِّكُمْ يريد لم يختلقها محمد صلى الله عليه وسلم بل هي من عند الله، وما فِي الصُّدُورِ يريد به الجهل والعتو عن النظر في آيات الله ونحو هذا مما يدفع الإيمان، وجعله موعظة بحسب الناس أجمع، وجعله هُدىً وَرَحْمَةٌ بحسب المؤمنين فقط، وهذا تفسير صحيح المعنى إذا تُؤُمِّلَ بان وجهه)(١).

ففيها ذكر الناس كما ذُكر آنفا في قوله: أكان للناس عجبًا، وجاء هنا الخطاب للناس كافة يَا أَيُّهَا النَّاسُ، وفيها ذكر القرآن وبيان ما فيه من الموعظة المتضمنة للترغيب والترهيب، وما فيه من هدى ورحمة للمؤمنين، ويتآزر هذا مع ذكر الوحي آنفا وما يتضمنه من الإنذار للناس والتبشير للمؤمنين قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾

فإذا كانت هذه الآية قد اشتملت على بيان كون القرآن موعظةً وشفاءً وهدىً ورحمةً للمؤمنين مما يومئ إلى ما سبق ذكره موجزا من الإنذار والتبشير في أول السورة، ثم مُفَصَّلاً بعض التفصيل بعد ذلك في الآية الثانية والثالثة والرابعة والخامسة من حديث السورة عن الإيمان، فإنها كانت بمنزلة التهيئة أو التوطئة لآيات تاليات في حديث السورة عن الإيمان، حيث أُعِيدَ التبشير بشيء من التفصيل مع وجود أصل المعنى، وكذلك أعيد الإنذار،

(١) ينظر المحرر الوجيز لابن عطية، ج٣ ص١٢٦.

وتضمنت الإعادة لهذين الأمرين بعض الزيادات المفيدة التي تَبْنِي على الأصل الذي مَرَّ، وبهذا تكون هذه الآية مُجْمِلَةً لما سبقها، مُهَيِّئَةً ومُوَطِّئَةً لما بعدها.

وبيان ذلك أن الموضع التاسع، والموضع العاشر قد تضمنا تفصيلا للبشرى وتفصيلاً للإنذار المذكورين من قبل إيجازاً وإطناباً.

أما تفصيل البشرى فقد جاء في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٦٤﴾ (الآيات: ٦٢ - ٦٤)

وليس بخافٍ أصل المعنى في هذه الآيات، وأنه البشرى للمؤمنين ومدى التشابه الكائن بينها وبين قوله تعالى آنفـًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٩﴾ (الآية: ٩)

مع زيادات مفيدة: كبَيَان أن أولياء الله هم المؤمنون الذين كانوا يتقون، وأنهم لا خوف عليهم، ولا هم يحزنون، وأن بشراهم ليست في الآخرة فقط ولكنها في الحياة الدنيا أيضـًا، وأن فوزهم هذا هو الفوز العظيم.

هذا كله في صياغة مُوَثَّقَة ومؤكدة غاية التوكيد.

وأما تفصيل وتكرار الإنذار فقد جاء في الموضع العاشر من مواضع ذكر الإيمان في السورة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ

قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ (الآية: ٧٤)

وواضح أيضـًا التشابه بين هذه الآية المتضمنة للإنذار بإهلاك المكذبين، وبين قوله تعالى آنفًا: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٣﴾﴾ (الآية: ١٣)

مع اختلاف يسير أن الآية المفتتحة بذكر الإهلاك: وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ... قد عُنِيَت بذكر الإهلاك مع بيان سببه وهو أن هؤلاء القرون التي أُهْلِكَت، قد أقيمت عليهم الحجة بإرسال الرسل، وأنهم لن يؤمنوا أبدا، لسابق علم الله فيهم، وأنهم مجرمون.

وأما الآية المفتتحة بذكر بعثة الرسل: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ ....﴾... قد عُنِيَت ببيان أداء الرسل لمهمتهم على أكمل وجه، وإقامة الحجة على المكذبين المعاندين، الذين طبع الله على قلوبهم فهم معتدون، وبيان ديدن الأقوام الذين كَذَّبوا مع رسلهم على مر الأزمان، وقد جاءت هذه الآية مُجملةً إجمالا شديدا، وقد فُصِّلَت في مواضع عدة من القرآن خصوصا سورة هود التي تتلو سورة يونس، وذاك وجه من وجوه التناسب بين هذه السورة وتاليتها.

وقد تشابهت وافترقت هذه الآية عن آية ذكر إهلاك القرون السالفة، على النحو الآتي بيانه عند بيان دقائق النظم.

وإذا كانت هذه الآية قد تضمنت ذكر أن الله قد قضى على المكذبين المعاندين المعتدين بعدم الإيمان، وطَبَع على قلوبهم، ذلك المعنى الذي مر من قبل في غير آية فإن الآيات الواردات بعد ذلك في سياق حديث السورة عن الإيمان قد أكدت هذا المعنى، بَل أيدته بالشواهد والبراهين وبضرب الأمثال، حيث ورد ذكر الإيمان في سبع آيات تلت هذه الآية وكلها واردٌ في قصة موسى وفرعون وبَني إسرائيل، ومعظم هذه المواضع قد ذُكِرَ فيها الإيمان منفياً بما أو بلا أو مشكوكا فيه أو مُعْلَناً اضطراراً كمحاولة أخيرة للنجاة مثلما ورد على لسان فرعون عند الغرق.

وبيان ذلك ما ورد من نفي الملأ من قوم فرعون لإيمانهم نفياً قاطعاً، تأكيداً لما ذُكِرَ من الطبع على قلوبهم، في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ۝٧٨﴾ (الآية: ٧٨)

ولذا فقد (صِيغَتْ جُمْلَةُ: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ۝٧٨﴾ اسْمِيَّةً دُونَ أَنْ يَقُولُوا وَمَا نُؤْمِنُ لَكُمَا لِإِفَادَةِ الثَّبَاتِ وَالدَّوَامِ وَأَنَّ انْتِفَاءَ إِيمَانُهُمْ بِهِمَا مُتَقَرِّرٌ مُتَمَكِّنٌ لَا طَمَاعِيَةَ لِأَحَدٍ فِي ضِدّه)[1].

ثم ما جاء مُؤَكِّداً لقلة من آمن مع موسى في صياغة قصرية طريقها النفي والاستثناء وذلك في قوله تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٨٣﴾ (الآية: ٨٣)

(١) ينظر التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، ج١١ ص٢٥٢.

مما دفع موسى عليه السلام أن يشك في ذلك الإيمان، أو يستبعد استمراره، فحَدَّثَ قومه طالبًا منهم التوكل على الله، إن كانوا قد آمنوا حقًا قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ (الآية: ٨٤)

ولذا فإن الله قد أمره أن يبشر هؤلاء الذين آمنوا معه فقال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [سورة يونس:٨٧].

ثم دعاء موسى على فرعون وملئه بعدم الإيمان حتى يروا العذاب الأليم، وقد استُجِيبَ دعاؤه، وتحقق مع فرعون عند غرقه فقال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ (الآية: ٨٨)

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ (الآية: ٩٠)

ثم التعقيب على قصة موسى وفرعون بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [سورة يونس:٩٦-٩٧].

وواضح ارتباط هذه الآية بدعاء موسى على فرعون وملئه، وارتباطها أيضًا بقوله تعالى آنفًا: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٣٣﴾ (الآية: ٣٣)

ثم يأتي الاستثناء الذي سميت السورة من أجله، حيث سُمِيَت بيونس تسجيلا لهذا الاستثناء الرباني على النحو الذي تم بيانه آنفًا فقال تعالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ٩٨﴾ (الآية: ٩٨)

ثم أُتبِعَ هذا الاستثناء بتعليله، حيث يرجع كل شيء إلى مشيئة الله عز وجل، فلا يكون شيء في كونه إلا بإذنه، وأن الرسل والآيات لا يغنون من شيء إذا لم تهيمن مشيئة الله وتتغلب إرادته فقال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٩٩﴾ (الآية: ٩٩)

﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٠ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١﴾ (الآية: ١٠١)

ثم يُرَدُّ عجز الكلام على صدره، فيُختم حديث السورة عن الإيمان بوعد الله عز وجل لرسله وللمؤمنين بالنجاة، وتلك هي البشرى المذكورة في مطلع

الحديث قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ (الآية: ١٠٣)

ثم تتمثل براعة المقطع أو حسن الختام في التصريح بطلب الإيمان، والنهي عن الشرك، فقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ (الآيات: ١٠٤ – ١٠٦)

وبعد: فمما لا شك فيه، أننا لو حاولنا أن نرتب هذه الآيات ترتيبًا آخر غير الذي ورد في سياق السورة، لأفسدنا تسلسل المعاني، وفرقنا بينها تفريقًا لا يلتئم به شملها أبداً، وذلك لبناء بعضها على بعض، ولإحالة بعضها إلى بعض، ولِنمو المعنى في آية لاحقة بعدما كان جنينًا في سابقتها، ولإزالة بعضها لشبهات تثيرها بعضها، ولتضمن بعضها إجابات لأسئلة أثارته سابقاتها، ولمراعاتها لطبيعة النفس البشرية التي تتلقى الأمر بشيء من الريبة، ثم تذعن له إن أقيمت عليه الأدلة وَعَضَّدَتْه الشواهد والبراهين، وقد تعاند وتنكر لِهَوًى، وغير ذلك من الأحوال التي تطرأ على المتلقي.

وإن تكرار أصل المعنى مع اختلاف الصياغة اختلافًا يسيرا، أو بزيادات مفيدة قد كان من وجوه بلاغة القرآن وإعجازه كما ذكر ذلك الرافعي حيث قال: (وههنا معنى دقيق في التحدي، ما نظن العرب إلا وقد بلغوا منه عجبًا: وهو التكرار الذي يجيء في بعض آيات القرآن، فتختلف في طرق الأداء

وأصل المعنى واحد في العبارات المختلفة، كالذي يكون في بعض قَصَصه لتوكيد الزجر والوعيد وبسط الموعظة وتثبيت الحجة ونحوها، أو في بعض عباراته لتحقيق النعمة وترديد المنة والتذكير بالنعم واقتضاء شكره، إلى ما يكون من هذا الباب؛ وهو مذهب للعرب معروف...

وقد خفي هذا المعنى (التكرار) على بعض الملحدة وأشباههم ومن لا نَفَاذ لهم في أسرار العربية ومقاصد الخطاب والتأتي بالسياسة البيانية إلى هذه المقاصد، فزعموا به المزاعم السخيفة وأحالوه إلى النقص والوهن، وقالوا إن هذا التكرار ضعف وضيق من قوة وسعة، وهو - أخزاهم الله - كان أروعَ وأبلغ وأسرى عن الفصحاء من أهل اللغة والمتصرفين فيها)[1].

ومن وجوه البلاغة أيضا في حديث السورة عن الإيمان ما ذُكِر من احتمال الآية لوجه من الوجوه باعتبار ما، ثم احتمالها لضده باعتبار آخر، حيث تُعدُّ الآية إجمالا بالنظر إلى آية أخرى، كما تُعد تفصيلا إذا ما وضعناها بإزاء بعض الآيات، وتلك سمة غالبة على التعبير القرآني (ترى للجملة الواحدة، أو الكلمة الواحدة وجوهًا عدة. كلها صحيح، أو محتمل للصحة، كأنما هي فص من الماس يعطيك كل ضلع منه شعاعًا، فإذا نظرت إلى أضلاعه جملة بهرتك بألوان الطيف كلها، فلا تدري ماذا تأخذ عينك، وماذا تدع)[2].

---

(١) ينظر إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي ص١٣٤ وما بعدها بتصرف، دار الكتاب العربي بيروت، ط٨، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٥م.

(٢) - يُنظر: النبأ العظيم محمد عبد الله دراز، صـ١٥١ وما بعدها، اعتنى به أحمد مصطفى فضلية، دار القلم، ٢٠٠٥م.

وهكذا تجلت بلاغة الانسجام والترابط والتلاحم بين آيات الحديث عن الإيمان في السورة، وإن تباعد بعضها عن بعض، إلا أن انتظامها جميعا في سلك الحديث عن الإيمان قد جعل منها كلاً متكاملاً وَصيَّرَها كائنًا حيًا له رأس وعقب وأعضاء ملتحمة يؤدي فقد بعضها إلى عجز واختلال في بنية ذلك الكائن الحي وربما إلى هلاكه.

وليس الأمر مقصورا على مجرد التلاحم والترابط، بل الترتيب أيضا –كما ذكرت–، فليس يصح أن يوضع الوجه موضع القدم، والعكس غير صحيح أيضًا، أو أن يوضع الذراع موضع الساق، حيث إنَّ اللاحق قد بُنِيَ على السابق، والسابق قد أَسَّسَ للاحق وهكذا، وهذا ما تجلى في بِنْيَة حديث السورة عن الإيمان فقد بدأ برأس الحديث وهو الإنذار والبشرى، ثم أتبعه بتفصيل ذلك الرأس، نوع تفصيل، ثم إجماله، ثم بتفصيله بنوع آخر من التفصيل ومع إضافات وإفادات جديدة في كل مرة تُعاد فيها الفكرة أو يتكرر فيها أصل المعنى، ثم يعمد إلى تأييد ذلك الحكم بالشواهد وضرب الأمثال، ثم يأتي الختام مُصَرِّحًا بالمطلوب، ناهيًا عن خلافه، وواصفًا المتجاوزين بالظلم ﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٦﴾ (الآية: ١٠٦)، فإن القرآن يُكمِّلُ بعضه بعضا، وإن أَقْوَم طرق تفسيره، تفسيره بنفسه.

وحديث السورة عن الإيمان قد توفر له شرط العز بن عبد السلام، ليكون من محاسن الكلام بارتباط بعضه ببعض، حيث وقع الحديث في أمر متحد، حيث قال: (–واعلم– أن من الفوائد أن من محاسن الكلام أن يرتبط بعضه

ببعض، ويتشبث بعضه ببعض... وهذا بشرط أن يقع الكلام في أمر مُتَّحِد فيرتبط أوله بآخره)[1].

ويجعل السيوطي المناسبة بين الآيات والسور وارتباط بعضها ببعض وجهًا من وجوه إعجاز القرآن فيقول: (الوجه الرابع من وجوه إعجازه: مناسبة آياته وسوره وارتباط بعضها ببعض، حتى تكون كالكلمة الواحدة، متسقة المعاني، منتظمة المباني... وعلم المناسبة علم شريف قلّ اعتناء المفسرين به لِدِقَّتِهِ، وممن أكثر منه الإمام فخر الدين، وقال في تفسيره: أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط)[2].

هذا كله في أسلوب رفيع، احتشد بصنوف البلاغة على اختلافها، ودقائق التعبير، ومزايا النظم، وأسرار للصياغة مما سنقف على شيء منه فيما يأتي بإذن الله.

❁❁❁❁❁

---

(١) ينظر الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز للعز بن عبد السلام، ص٢٢١ بتصرف، تح: رمزي بن سعد الدين، دار البشائر الإسلامية، ط١، ١٤٠٨ه.

(٢) ينظر معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي، ج١ ص٤٣، وينظر مفاتيح الغيب للرازي، ج١٠ ص١١٠.

المبحث الثالث :من دقائق النظم في حديث سورة يونس عن الإيمان

وبعدما خلص إليه البحث في المبحث السالف إلى أن حديث السورة عن الإيمان قد كان معجزاً لتماسكه والتحام بعضه ببعض، وذلك حديث عن موضوع واحد في سورة واحدة من سور القرآن ووجه واحد من وجوه إعجازه، فكيف بغير ذلك من موضوعات وما سوى سورة يونس من سور القرآن، فلا ريب أنها بتلاحمها وارتباطها وبإعجاز نظمها، دالة- بما لا يدع مجالا للشك عند ذوي الألباب- على أنه من عند الله العلي القدير، وأنه ليس في وسع البشر الإتيان بسورة من مثله، كيف وقد تحداهم الله بأن يأتوا بأقل القليل من ذلك فعجزوا.

وقد ذكر ابن عطية أن براعة القرآن تتبين لنا في الأكثر ويخفى وجهها في مواضع لقصورنا، مُرجعًا إعجاز القرآن إلى فصاحته ونظمه فيقول (الذي عليه الجمهور والحذاق وهو الصحيح... أن التحدي إنما وقع بنظمه وصحة معانيه وتوالي فصاحة ألفاظه، ووجه إعجازه أن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علمًا، وأحاط بالكلام كله علمًا، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن علم بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولى وتبين المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره، والبشر معهم الجهل، والنسيان، والذهول، ومعلوم ضرورة أن بشرا لم يكن قط محيطًا، فَبِهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة... فإن كتاب الله لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد، ونحن تبين لنا البراعة في أكثره ويخفى علينا وجهها في

مواضع لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق وجودة القريحة وميز الكلام)[1].

وحديث سورة يونس عن الإيمان قد كان حافلاً بالعديد من دقائق النظم وأسرار الصياغة بالإضافة إلى ما مر من الترابط والتلاحم، واستناداً إلى ما ذكره ابن عطية – وهو صحيح- من أننا قاصرون عن الإلمام بوجوه براعة القرآن في نظمه وتركيبه، مع مخالفتي له في أننا تبين لنا البراعة في أكثره ويخفى علينا وجهها في مواضع، إذ أنني أرجح أن العكس هو الصحيح، حيث تبين لنا البراعة في مواضع، ويخفى علينا وجهها في الأكثر، وإن توهمنا غير ذلك، وإنما نقف على قطرات من محيطها الزاخر، (فإن كلَّ كلمة من كلمات القرآن كنزُ معانٍ، وبحر حقائق)[2].

أقول: استناداً إلى حقيقة القصور البشري عن الإحاطة بجميع الأسرار فسوف أحاول- فيما يأتي من صفحات هذا البحث - تَلَمُّس أهم السمات البنائية، والخصائص التركيبية التي تتشكل منها ملامح حديث السورة عن الإيمان، هذا مع الإقرار بالعجز والقصور.

أولاً- الجمع بين براعة الاستهلال وحسن الختام

أ- براعة الاستهلال.

- يمكن أن يُجعل لحديث السورة عن الإيمان بدايتين ونهايتين: البداية الأولى عند أول ذكر للفظ آمنوا في الآية الثانية من السورة، والبداية الثانية هي افتتاح السورة نفسها بالحروف المقطعة ا ل ر، ولا تعارض بين البدايتين إذ

---

(١) ينظر المحرر الوجيز لابن عطية، ج١ ص٥٢ بتصرف.

(٢) ينظر بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي، ج١ ص٧١.

أنهما متصلتان اتصالاً شديداً فإحداهما في الآية الثانية، وثانيتهما في الآية الأولى، ووجه اتصالهما أن السورة قد افتتحت بحروف مقطعة، متبوعة بحديث عن آيات الكتاب الموصوف بالحكمة، ثم تأتي الآية الثانية لتبين مضمون ذلك الكتاب الموحى به إلى رجل من البشر أو رجل من قريش، وهو الإنذار للناس كافة والبشارة للذين آمنوا فقط.

- والسر في مجيء ذلك الابتداء متضمناً لبراعة الاستهلال، هو أنه جاء فيه ما يدل على مضمون حديث السورة عن الإيمان، بل ما يشير إلى مضمون السورة بأكملها، حيث ذُكِرَ فيه الإنذار والتبشير، مجملين، ثم فُصِّلا فيما بعد في عديد من آيات حديث السورة عن الإيمان وفي غيرها من آيات السورة، وقد أوضحت ذلك عند الحديث عن ترابط آيات حديث السورة عن الإيمان، وتلاحمها.

ومعلوم أن (أحسن الابتداءات ما ناسب المقصود، ويسمى براعة الاستهلال... وهي أن يكون مطلع الكلام دالاً على غرض المتكلم من غير تصريح بل بإشارة لطيفة)[1].

وقد مر بنا أن مقصود السورة الأعظم هو الحديث عن الوحي، أو الدعوة إلى الوحدانية، فذاك هو الغرض العام وقد بينت آنفا وجه الارتباط بين هذا الغرض العام وبين حديث السورة عن الإيمان، وقد جاء ذكر الإنذار والتبشير على أنهما تفسيرٌ لمضمون الوحي، وفي ذلك إيماء وإشارة لطيفة إلى الغرض العام، وإلى ما تضمنه حديث السورة عن الإيمان، حيث اشتملت الآيات بعد

(١) ينظر بغية الإيضاح للشيخ عبد المتعال الصعيدي، ج٤ ص١٣٤ بتصرف، مكتبة الآداب، ١٩٩٩م.

ذلك على تفصيل للبشرى وبسط للإنذار على النحو الذي مر، قال تعالى في مطلع السورة وفي بداية حديثها عن الإيمان: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾ (الآيات: ١ - ٢)

فإن مبنى الآية المتضمنة لذكر الإنذار والتبشير قد كان على إنكار تعجبهم من الإيحاء إلى رجل منهم والتعجيب من تعجبهم، والتوبيخ لهم عليه، ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾، ويؤيد ذلك سبب نزول الآية (قال ابن عباس: سبب نزولها أن الله تعالى لما بعث محمداً صلى الله عليه وسلم رسولاً أنكر العرب ذلك أو من أنكر منهم فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد، فنزلت هذه الآية. وهذا لفظه لفظ الاستفهام ومعناه الإنكار والتعجب مَن كفر من كفر بالنبي صلى الله عليه وسلم لأنه جاءهم رسول منهم، وقد أرسل الله إلى سائر الأمم رسلاً منهم)(١).

وهكذا تكون الآية قد تضمنت الإشارة إلى، ما سيأتي تفصيله في حديث السورة عن الإيمان لاحقًا، أو أنها تضمنت معنى أُريدَ تكميله على ما ذكره ابن أبي الإصبع من تعريف لبراعة الاستهلال(٢).

(١) ينظر النكت والعيون للماوردي، ج٢ ص٤٢١.

(٢) ينظر تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، لابن أبي الإصبع المصري، ص١٦٨، تح: حفني شرف، الناشر: الجمهورية العربية المتحدة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، بدون.

وفيما ذكرته آنفـًا من تفصيل القول في كيفية انبثاق آيات الحديث عن الإيمان في السورة بعضها من بعض، وتأكيدها – مع البسط والزيادات المفيدة – لمعنى الإنذار والتبشير، الكفاية، مما يغني عن الإعادة، وغاية ما أردتُ إثباته هو تضمن أول آية من آيات الحديث عن الإيمان في السورة لحسن الابتداء وبراعة الاستهلال، مما يدعم القول بالترابط والتلاحم المذكور آنفـًا.

وأما عن افتتاح السورة بحروف مقطعة وهي ا ل ر، وهو افتتاح لحديثها عن الإيمان أيضـًا، ففيه لطيفة ذكرها الزركشي بأن أكثر كلمات السورة قد تكرر فيه حرف الراء مراعاة لما افتتحت به حيث جاء هذا الحرف ثالثـًا بعد الألف واللام، وذكر اطراد ذلك في كثير من السور المفتتحة بحروف مقطعة، فقال: (وَمِنْ ذَلِكَ السُّوَرُ الْمُفْتَتَحَةُ بِالْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ وَوَجْهُ اخْتِصَاصِ كُلِّ وَاحِدَةٍ بِمَا وَلِيَتْهُ حَتَّى لَمْ تَكُنْ لِتَرِدَ ﴿الم﴾ فِي مَوْضِعِ ﴿الر﴾ وَلَا ﴿حم﴾ فِي موضع ﴿طسٓ﴾ لاسيما إِذَا قُلْنَا: إِنَّهَا أَعْلَامٌ لَهَا وَأَسْمَاءٌ عَلَيْهَا، وَكَذَا وَقَعَ فِي كُلِّ سُورَةٍ مِنْهَا مَا كَثُرَ تَرْدَادُهُ فِيمَا يَتَرَكَّبُ مِنْ كَلِمِهَا وَيُوَضِّحُهُ أَنَّكَ إِذَا نَاظَرْتَ سُورَةً مِنْهَا بِمَا يُمَاثِلُهَا فِي عَدَدِ كَلِمَاتِهَا وَحُرُوفِهَا وَجَدْتَ الْحُرُوفَ الْمُفْتَتَحَ بِهَا تِلْكَ السُّورَةُ إِفْرَادًا وَتَرْكِيبًا أَكْثَرَ عَدَدًا فِي كَلِمَاتِهَا مِنْهَا يُوجَدُ لَهُ النَّظِيرُ مَا يُشْعِرُ بِأَنَّ هَذِهِ لَوْ وُجِدَ مَا يُمَاثِلُهَا لَجَرَى عَلَى مَا ذَكَرْتُ لَكَ وَقَدِ اطَّرَدَ هَذَا فِي أَكْثَرِهَا فَحُقَّ لِكُلِّ سُورَةٍ مِنْهَا أَلَّا يُنَاسِبَهَا غَيْرُ الْوَارِدِ فِيهَا فَلَوْ وُضِعَ مَوْضِعَ ﴿ق﴾ مِنْ سُورَةِ ﴿ن﴾ لَمْ يُمْكِنْ لِعَدَمِ التَّنَاسُبِ الْوَاجِبِ مُرَاعَاتُهُ فِي كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى وَقَدْ تَكَرَّرَ فِي سُورَةِ يُونُسَ مِنَ الْكَلِمِ الْوَاقِعِ فِيهَا ﴿الر﴾ مِائَتَا كَلِمَةٍ وَعِشْرُونَ أَوْ نَحْوُهَا فَلِهَذَا افْتُتِحَتْ بِـ ﴿الر﴾)[1].

(١) ينظر البرهان في إعجاز القرآن للزركشي، ج١ ص٢٧٢.

واللطيف في هذا – فيما أرى – أن حرف الراء هو أحد حروف كلمتي: أنذر وبشر، بالإضافة إلى كونه ختاماً لهما كما جاء ختاماً لِـ (الر)، وجاء افتتاحاً للفظ رجل.

وقد أنكر الدكتور عبد العظيم المطعني رحمه الله هذا الوجه في تفسير الحروف المقطعة، متسائلاً عن قيمته البيانية، نافياً أن يكون لائقاً بجلال القرآن وعلو منزلته، ثم يرجح القول بأن السر فيها هو كون القرآن مركباً من مادة لغة العرب، وعلى الرغم من ذلك فقد عجزوا عن الإتيان بمثله(١).

ولقد بدا لي في قيمتها البيانية وجه أردتُ إثباته من غير إنكار على شيخنا رحمه الله، وهو مستمَدٌّ من خصائص حرف الراء وصفاته، ومستندٌ إلى الإقرار بوجود البلاغة الصوتية في القرآن الكريم(٢) حيث يتسم هذا الحرف بقدرته على تصوير المعاني التي تحتاج إلى ترجيع وتكرار، وحركة، حيث إن التكرير صفةٌ لازمةٌ له، وليست لغيره من الحروف، لذا فقد نَبَّه علماء التجويد على ضرورة التوقي من المبالغة فيها عند النطق وعدم إغفالها

---

(١) ينظر خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية د. عبد العظيم المطعني، ج١ ص٢٠٣، مكتبة وهبة، ط١، ١٩٩٢م.

(٢) يعرف الدكتور محمد إبراهيم شادي البلاغة الصوتية بقوله هي كل وسيلة صوتية يتحقق فيها مفهوم البلاغة بمعناها المصطلح عليه عند البلاغيين، فلابد فيها من ملاحظة أمرين: الأول: أن نتجاوز الإطار الصوتي بجرسه وإيحائه وإيقاعه واعتداله إلى ما يحدثه من إبراز المعنى وتأكيده وتسلسله وانتظامه. والثاني: أن يتحقق بالأداء الصوتي مطابقة الكلام لمقتضى الحال. ينظر البلاغة الصوتية في القرآن الكريم ص١١، دار الرسالة، ط١، ١٩٨٨م.

بالكامل[١]. (فحرف الراء حرف مجهور متوسط الشدة والرخاوة وفي الحقيقة، إن حاجة اللغة العربية إلى حرف الراء لا تقل عن حاجة الجسد للمفاصل. فلولا صوت الراء لفقدت لغتنا الكثير من مرونتها وحيويتها وقدرتها الحركية، ولفقدت بالتالي الكثير من رشاقتها، ومن مقومات ذوقها الأدبي الرفيع.

فكما أن مفاصل الجسد تساعد أعضاءه على التحرك بمرونة في كل الاتجاهات، وعلى تكرار الحركة المرّة بعد المرّة، فإن حرف الراء بتمفصل صوته... وبرشاقة طرف اللسان في أدائه، قد قدَّم للعربي الصور الصوتية المماثلة للصور المرئية التي فيها ترجيع وتكرار، وتأرجح ذات اليمين وذات الشمال، وذلك" حذوا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث"، كما قال ابن جني)[٢].

ويشهد حديث السورة عن الإيمان لخاصية التكرار في حرف الراء الوارد في فعل الإنذار والتبشير، حيث تكرر ذكرهما غير مرة، مع تفصيلات ومزيد من الإفادات.

---

(١) ينظر فتح رب البرية شرح المقدمة الجزرية في علم التجويد صفوت محمود سالم، ص٤٦، دار نور المكتبات، جدة – المملكة العربية السعودية، ط٢، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣م.

(٢) ينظر خصائص الحروف العربية ومعانيها لحسن عباس، ص٨٤، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٨ م، وينظر الخصائص لابن جني، ج٢ ص. ١٦٠، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٤، بدون.

ولعل السر في اشتمال هذين الفعلين على حرف الراء، هو الدلالة على ضرورة الصبر والمعاودة وتكرار إنذار الناس مرة بعد مرة، وكذلك الحال مع التبشير بغية تثبيت المبشرين، وقد أشرنا إلى شيء من هذا عند الحديث عن السر في تسمية السورة باسم يونس.

هذا مع ملاحظة أن الراء في الفعلين: أنذر وبشر قد كانت مُرقَّقةً لكونها ساكنةً وما قبلها مكسور، ولهذا دلالة على وجوب التزام الرقة والتلطف في الدعوة والابتعاد عن الفظاظة.

وكذلك فإن فعل بَشِّر فعلٌ مضَعَّف العين مما يؤيد معنى التكرير في اللفظ، فهو كما قال ابن جني من باب إمساس الألفاظ أشباه المعاني، حيث قال: (ومن ذلك أنهم جعلوا تكرير العين... دليلًا على تكرير الفعل، فقالوا: كسَّر وقطَّع وفتَّح وغلَّق. وذلك أنهم لما جعلوا الألفاظ دليلة المعاني فأقوى اللفظ ينبغي أن يقابل به قوة الفعل، والعين أقوى من الفاء واللام، وذلك لأنها واسطة لهما...، فصارا كأنهما سياج لها، ومبذولان للعوارض دونها..، فلمَّا كانت الأفعال دليلة المعاني كرروا أقواها وجعلوه دليلًا على قوة المعنى المحدث به)[1].

ولذا فإن فعل(بَشِّر) يدل على ضرورة التكرير والرقة في الدعوة، بالإضافة إلى معنى الذيوع والانتشار إذا ما أُخِذ في الاعتبار ما يتصف به حرف الشين من التفشي.

(١) ينظر الخصائص لابن جني، ج٢ ص١٥٧ بتصرف.

ويمكن أن يُعلل اصطفاء القرآن للفظ رجل عند إنكاره على المشركين الإيحاء إلى رجل منهم، بأن اشتمال هذا اللفظ على حرف الراء يدل على تكرار إرسال الرسل من رجال البشر، وكأنه قيل لهم: أَتعجبون من أمر جرت به العادة ومعهودٌ تكراره، فلم يقل: أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى محمد، هذا مع ملاحظة فتح حرف الراء فجاء مفخَّمًا، وكأنه إشارة إلى أن هذا الرجل قد علا شأنه بتلك الرسالة.

وعلى هذا فإن تكرار حرف الراء في السورة كلها، وفي آيات حديثها عن الإيمان، قد كان للدلالة على ضرورة التكرار والمعاودة واستمرار الحركة واستنفاد الجهد في الدعوة إلى توحيد الله وحث الناس على الإيمان به وبرسوله وبكتابه.

وبهذا لا يكون مطلع السورة مشتملا على حسن الابتداء وبراعة الاستهلال بإشارته إلى معان مجملة يتم بسطها لاحقا فحسب، وإنما باشتماله على تكرار حرف الراء الذي شاع شيوعًا ملحوظًا في السورة بأكملها، حيث ورد في الآيتين الأولى والثانية سبع مرات في الر، ورجل، وأنذر، وبشر، وربهم، والكافرون، لساحر، ولذلك ارتباط بمقصود السورة الأعظم.

ب- حسن الختام.

وكما كان لحديث السورة عن الإيمان بدايتان على النحو الذي مر بيانه، يمكن أن يكون له أيضًا خاتمتان تتصل إحداهما بالأخرى اتصالاً شديداً.

أولاهما - في آخر مرة ذُكِرَ فيها مشتق من مشتقات الإيمان في السورة.

ثانيتهما – ختام السورة نفسها.

أما الخاتمة الأولى ففي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ (الآيات: ١٠٤ – ١٠٦)

(وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ معطوف على قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾.

وهكذا كان النهي عن الشرك بعد الأمر بالإيمان وإقامة الوجه لله بلا ميل، ذلك لأن الشرك يدخل إلى النفس من مسارب شيطانية كثيرة يحسبها الناس صغائر وهي كبائر...

وقد كان تأكيد النهي عن الشرك بنون التوكيد الثقيلة وقد عطف على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ (الآية: ١٠٦)

﴿تَدْعُ﴾ الدعاء هنا العبادة والضراعة وهذا معطوف على ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾، ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي غير الله تعالى وهي الأوثان التي جعلتموها أندادا لله مستحقة للعبادة، وقد وصفها سبحانه بحقيقتها الثابتة فقال: ﴿مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ أي أنها في ذاتها لا تنفعه ولا تضره، وجعل الخطاب بالنفع والضرر لمن يدعوها إشارة إلى أنهم تركوا ما ينفع

ويضر إلى ما لَا ينفع ولا يضر، وذكر هذه الحقيقة فيه تعليل للنهي عن عبادتها، لأنه إنما يعبد الجدير بالعبادة ويوفي الشكر لمن ينفع ويخشى عذابه، أما الأوثان فلا نفع فيها يرتجى ولا ضرر منها يُتقى.

إن عبادة الأوثان واتخاذها أندادا لله تعالى والشرك به سبحانه، ظلم بين، ولذا قال تعالى: ﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٦﴾، (الفاء) في مقام التعليل للنهي، أي أن عبادة ما لَا ينفع ولا يضر – ظلم، وقد جاء ذلك بصيغة الشرط والجزاء ليبين ارتباط الفعل بوصف الظلم، أي أن هذا الفعل مترتب عليه وصف الظلم لَا محالة. وقد ذكر ذلك بالشرط الدال على الارتباط أولا، والإيماء إلى الارتباط بقوله: (إِذًا)، أي أنه إذا كان الأمر كذلك فإنك من الظالمين لَا محالة، و (الفاء) الثانية للدلالة على الجزاء)[1].

ففي هذه الآيات قد أُمِرَ النبي بأن يخبر الناس بأنه مأمور بالإيمان ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ، ومنهي عن الشرك بالله ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وعن أن يدعو من دون الله ما لا ينفعه ولا يضره، فإن عصى فإنه يكون حينئذ من الظالمين ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٦﴾.

فقد تضمنت الآيات إذن الأمر بالإيمان، والنهي عن ضده وهو الشرك، والنهي عن دعاء أحد من دون الله وبيان عاقبة المخالفة وهي الصيرورة إلى

(١) ينظر زهرة التفاسير الشيخ محمد أبو زهرة، ج٧ ص٣٦٤٣ وما بعدها بتصرف شديد، دار الفكر العربي، بدون.

ظلم النفس، وإذا كان مقصود السورة الأعظم هو الدعوة إلى الإيمان بالله وبكتبه وبرسوله، فأي معنى يحسن أن يختم به الحديث عن الإيمان غير الأمر به والنهي عن ضده وبيان عاقبة المخالفين؟

وأما الخاتمة الثانية وهي خاتمة السورة نفسها فقد جاءت في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ (الآية: ١٠٩)

(الأمر في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ هو التكليفات الشرعية كلها والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر...

إن الدعوة ليست أمرا هينا لينا ولكن يكتنفها المشاق والصعاب، فعلاج النفوس ليس أمرا قريب المنال، وإنما يتعرض لما يتعرض له أهل الحق من سفاهة السفهاء وأذى الأقوياء وغطرسة العتاة الظالمين... ولذا جاء تعالى بالأمر الثاني وهو الصبر فقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۚ﴾ أي اصبر على ذات ما يوحى إليك من تكليف، هو في ذاته شاق على النفوس، واصبر على أذى من تدعوهم، واصبر على الدعوة وجهاد الظالمين، الذين يفتنون الناس عن دينهم، وإن لذلك منتهى، هو حكم الله وإن الله تعالى ناصر الحق وهو الهادي المرشد، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾[1].

فالأمر باتباع الوحي أمرٌ بالإيمان بالله والوحي والإيمان بالله متلازمان إذ يلزم عن الإيمان بأحدهما الإيمان بالآخر، ثم إن الأمر بالصبر على الدعوة مرتبط ارتباطـًا شديدا بما ذكرناه عند الحديث عن سر تسمية السورة بيونس

(١) ينظر زهرة التفاسير، ج٧ ص٣٦٤٧ بتصرف.

وأنه مراعاة لمعنى الألفة والإيناس الموجود في اللفظ بالإضافة إلى الإشارة إلى ما كان من يونس مع قومه من مغاضبته لهم وعدم صبره عليهم وقد فصلتُ القول في هذا آنفًا، كما أن الأمر بالصبر هنا يؤكد معنى التكرار الذي ذكرته عند الحديث عن شيوع حرف الراء في السورة وافتتاحها بحروف مقطعة مشتملة عليه الر، وبمجيئه في الفعلين الذين تقوم عليهما الدعوة: أنذر وبَشِّر.

ولذا فإن هذه الخاتمة – وهي مرتبطة بافتتاح السورة على النحو الذي مر بيانه– خير ختام لحديث السورة عن الإيمان، لولا خلوها من ذكر أحد مشتقاته، هذا مع ملاحظة ورود حرف الراء فيها في كلمتين: اصبر، وخير..

وقد عُني البلاغيون بحسن الختام عناية بالغة معللين ذلك بكونه آخر ما يبقى في الأسماع يقول ابن حجة الحموي في خزانته: (وهذا النوع الذي يجب على الناظم والناثر أن يجعلاه خاتمة لكلامهما، مع أنهما لا بد أن يحسنا فيه غاية الإحسان، فإنه آخر ما يبقى في الأسماع، وربما حفظ من دون سائر الكلام في غالب الأحوال، فلا يحسن السكوت على غيره.

وغاية الغايات، في ذلك، مقاطع الكتاب العزيز في خواتم السور الكريمة[1].

ويقول ابن أبي الإصبع المصري ذاكراً خواتيم السور إجمالاً (و جميع خواتم السور الفرقانية في غاية الحسن ونهاية الكمال، لأنها بين أدعية ووصايا

(١) ينظر خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي، ج٢ ص٤٩٣، تح: عصام شقيو، دار ومكتبة الهلال بيروت، ٢٠٠٤م.

وفرائض وتحميد وتهليل ومواعظ ومواعد، إلى غير ذلك من الخواتيم التي لا يبقى للنفوس بعدها تشوّف إلى ما يقال... كتسليته صلى الله عليه وسلم- التي ختمت بها يونس، ومثلها خاتمة هود، ووصف القرآن ومدحه الذي ختمت به يوسف..)[1].

ثم يختم كلامه بقوله: (هذه خواتم السور الفرقانيّة على الإجمال، ولو ذهبتُ إلى ذِكر تفاصيلِ ما انطوت عليه من المحاسن والفنون، وما يُبرهِن عن تمكينها ورشاقة مَقاطِعها وانتهاء البلاغة إلى كل مَقطَع منها، لاحتجتُ في ذلك إلى تدوين كتاب بذاته، وإلحاق ذلك بهذا الكتاب ممّا يطيله ويُعظم نقله على من يريد تقييدَه)[2].

ثانيًا- تكاثر المؤكدات وتآزرها مجابهةً لشدة الإنكار، وتوثيقا للوعد والوعيد

إن المتأمل لحديث سورة يونس عن الإيمان يلحظ- بغير مشقة- شيوع أساليب التوكيد على اختلافها[3]، بالإضافة إلى تآزرها وتكاتفها لِتُكَوِّنَ قذيفةً

(١) ينظر بديع القرآن لابن أبي الإصبع المصري، ج٢ ص٣٤٦ وما بعدها بتصرف.

(٢) ينظر المرجع السابق ج٢ ص٣٥٣.

(٣) أعني بالمؤكدات كل الأساليب والأدوات التي يكون لها أثر في توثيق الكلام وتثبيته، وقد ذُكر أن من مؤكدات الحكم: (إن) المكسورة الهمزة، والقَسَم، ونونا التوكيد، ولام الابتداء، واسمية الجملة، وتكريرها ولو حُكْمًا، وأما الشرطية، وحروف التنبيه، وحروف الزيادة -على ما فُصِّل في النحو- وضمير الفصل، وتقديم الفاعل المعنوي، والسين، وقد التي للتحقيق... وغيرها ينظر حاشية الدسوقي على مختصر المعاني، ص٣٦٨، تح: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية بيروت.

مدمرةً تَنْقَضُّ على جدار الإنكار الذي بناه الكافرون بينهم وبين ما جاء به الوحي من إنذار وتبشير، لتنسفه نسفًا، وتذروه ذرواً.

وقد استقر البلاغيون على أن المخاطب إذا كان منكراً للخبر (فإنه لا بد من التوكيد، وهذا التوكيد، يختلف قلة وكثرة على وفق أحوال الإنكار، فإن كان إنكاره إنكارًا غير مستحكم في نفسه أكد بمؤكد واحد، وإن كان مستحكمًا تضاعفت عناصر التوكيد بمقدار تصاعد حالة الإنكار؛ لأن وظيفة الخبر حينئذ هي تثبيت هذا المعنى في تلك النفس الرافضة له، فلا مفر من أن تكون قوة العبارة، ووثاقتها ملائمة لحال النفس قادرة على الإقناع)[1].

وجاء إنكار الكفار للإنذار والتبشير في قولهم: إن هذا لساحر مبين في قوله تعالى في ختام أول آية من آيات الحديث عن الإيمان في السورة: ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾ (الآية: ٢)

فنجدهم قد أكدوا هذا الحكم بعدة مؤكدات ك إن، واسمية الجملة، ودخول اللام على الخبر لساحر، وباسم الإشارة هذا، وبوصف الساحر بالمبين لساحر مبين، ليدلوا بذلك على رفضهم التام لما جاء به الرسول من الإنذار لهم والتبشير للمؤمنين

وليس بأدل على إنكارهم من جعل القرآن فاعل هذا القول لفظ (الكافرون)، فأظهر وصفهم وكان من الممكن أن يكون مضمراً لبيان الغاية التي بلغوها في العناد والتكذيب، وهذا ديدن الكافرين مع جميع الأنبياء، وما

(١) ينظر خصائص التراكيب د. محمد أبو موسى، ص٨١، مكتبة وهبة القاهرة، ط٧.

قاله هؤلاء من وصف القرآن بالسحر أو وصف الرسول بالساحر قد قاله غيرهم كفرعون لموسى كما سيأتي في هذه السورة.

ويحتمل أن تكون هذه الجملة ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾ تفسيراً للعجب المذكور في أول الآية، وأن تكون مستأنفةً جوابًا لسؤال مقدر، أو بدل اشتمال من قوله: أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا، أو جوابًا لشرط مقدر فلما أنذرهم قال الكافرون وهي مع جميع التقديرات دالة على شدة إنكارهم لما جاء به الوحي، ويؤيد هذا قراءة لسحر بدون ألف لأن إشارتهم حينئذ تعود إلى القرآن وبقراءة لساحر بالألف تعود الإشارة إلى الرسول، ولا فرق بينهما فوصف القرآن بالسحر يستلزم كون الرسول ساحراً، ووصف الرسول بالساحر يستلزم أن يكون ما جاء به السحر، والذي يعنينا في هذه الجملة هو ما ورد فيها من صنوف التوكيد دلالة على شدة الإنكار، مما جعل حديث السورة عن الإيمان المتضمن لبيان الإنذار والتبشير مشتملاً على العديد من المؤكدات التي تتضافر فيما بينها ويتآزر أحدها مع الآخر لمجابهة ذلك الإنكار، فقد مر أن الخبر يؤكد بحسب إنكار المنكر فكلما تصاعد إنكاره، تكاثرت المؤكدات ردعًا له ونسفًا لمعتقده.

وليس هذا وحده هو سبب تكاثر المؤكدات في حديث السورة عن الإيمان، لأن هذا الحديث مشتمل على مقامين من أهم المقامات التي يكثر فيها التوكيد، ولو كان المخاطب غير منكر وهذان هما مقاما الوعد والوعيد التبشير والإنذار فيكثر التوكيد في مقام الوعد لتزداد النفوس به يقينًا

واطمئنانـًا[1]، ويكثر في مقام الوعيد ليرتعب المخاطب وترتعد أوصاله فلعله يراجع نفسه ويرتدع.

وإذا ما تأملنا الآية الثانية من حديث السورة عن الإيمان نجد فيها ذكرا لبيان التبشير والإنذار، حيث افتتحت ببيان أن المرجع لجميع الخلق إلى الله وحده وأن ذلك وعد من الله وأنه حق لا مراء فيه، وأنه يسير عليه سبحانه فكما بدأ الخلق فإنه قادر على إعادته، يعيد الخلق إليه ليجازيهم بأعمالهم فاللذين آمنوا وعملوا الصالحات يجازيهم بالقسط، ولم تذكر الآية الجنة والنعيم المقيم لأنه سيأتي مُفَصَّلاً في آية لاحقة، ولكنها ذكرت ما ينتظر الذين كفروا من شراب من حميم وعذاب أليم بسبب إصرارهم على الكفر.

ولعل السر في أنه بدأ بتفصيل الإنذار، أنه هو المأمور به أولا (أن أنذر الناس) بالإضافة إلى التعجيل بالرد على الكافرين بسبب ما قالوه عن الرسول بأنه ساحر، وما قالوه عن القرآن بأنه سحر.

ومما يدعم هذا -عندي-، أنه بدأ بذكر الشراب من صنوف العذاب لأنه يُتناول بالفم فتحترق به ألسنتهم وتشوى حلوقهم وتتقطع أمعاؤهم جزاءً لهم على افترائهم، قال تعالى في سورة الكهف: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ٢٩﴾ (الآية: ٢٩).

ولعل هذا أيضا هو السر في تقديم شراب من حميم على عذاب أليم وليس الشراب سوى صنف من صنوف العذاب فذُكِر الخاص متبوعـًا بالعام قال

(١) ينظر خصائص التراكيب د. محمد أبو موسى ص٩٧ بتصرف شديد.

تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾ (الآية: ٤)

فتفتتح الآية بجملة قصرية طريقها التقديم، إليه مرجعكم، حيث قصر المرجع على كونه لله وحده، وفي هذا تأكيد للرجوع إليه، ثم بَيَّن عموم الراجعين بقوله جميعًا، وهو منصوب على الحالية، وفيه تأكيد أيضا للشمول فلا يتخلف أحد عن الرجوع، وهذا دال على التهديد والوعيد للمخالفين العاصين المعاندين، وتثبيت وتطمين للمؤمنين الطائعين، يقول الرازي: (المرجع بمعنى الرجوع وجَمِيعًا نُصِبَ عَلَى الْحَالِ أَيْ ذَلِكَ الرُّجُوعُ يَحْصُلُ حَالَ الِاجْتِمَاعِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ الْمُرَادُ مِنْ هَذَا الْمَرْجِعِ الْمَوْتَ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ مِنْهُ الْقِيَامَةُ)[1].

ثم أتبع بقوله وعد الله حقا، فإضافة الوعد إلى الله دال على أنه واقع لا محالة، ثم أُكِّد بلفظ حقًا، فجاء مؤكدا غاية التوكيد.

يقول الزمخشري: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أي لا ترجعون في العاقبة إلا إليه فاستعدوا للقائه وَعْدَ اللهِ مصدر مؤكد لقوله إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ وحَقًّا مصدر مؤكد لقوله وَعْدَ اللهِ)[2].

(١) ينظر مفاتيح الغيب للرازي ج١٧ ص٢٠٤.

(٢) ينظر الكشاف للزمخشري ج٢ ص٣٢٨.

ثم افتتحت جملة إنه يبدأ الخلق ثم يعيده بإن المؤكدة أيضًا، لتأكيد البعث وما يترتب عليه من جزاء، ثم علل هذا بقوله: ليجزي الذين آمنوا وبلغ التهديد والوعيد الغاية في قوله: والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم، وذلك أنه... عطف الذين كفروا على الذين آمنوا وأوقع الجزاء عليهما فكل مجازى بعمله، ويؤيد هذا القول بأن معنى بالقسط في قوله: ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط، هو الإيمان، فالإيمان عدل، كما أن الشرك ظلم، ليقابل قوله: بما كانوا يكفرون وكأنه قيل ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بإيمانهم والذين كفروا بكفرهم.

ويحتمل أن يكون الذين كفروا مبتدأ وجملة لهم شراب من حميم خبره، فيكون الإخبار عنهم بهذا توكيداً لما ينتظرهم من العذاب الأليم، حيث قدم الخبر شبه الجملة (لهم) على المبتدأ شراب من حميم، ليفيد أنه لهم خاصة، وهذا يدعم ما ذكرته آنفًا من التعجيل بالرد عليهم بسبب افترائهم على الرسول.

يقول السمين الحلبي مبينا الوجهين المحتملين في إعراب الذين كفروا: (قوله: {والذين كَفَرُواْ} يحتمل وجهين، أحدهما: أن يكون مرفوعًا بالابتداء، والجملةُ بعده [خبره].

الثاني: أن يكون منصوبًا عطفًا على الموصول قبلَه، وتكونُ الجملةُ بعده مبيِّنَةً لجزائهم.

و "شراب" [يجوز أَنْ] يكونَ فاعلاً، وأن يكون مبتدأ، [والأولُ أولى])[1].

وقد جمع في بيان السبب الذي من أجله استحقوا شرابًا من حميم وعذابًا أليمًا بفعلين أحدهما ماض كانوا، والآخر مضارع يكفرون في قوله: بما كانوا يكفرون، مشيراً بذلك إلى أنهم عريقون في الكفر مستمرون وَمُصِرُّون عليه.

وهكذا يتجلى، كيف تكاثرت المؤكدات- على اختلافها- في هذه الآية ضحداً لفريتهم أن هذا القرآن سحر وأن الرسول ساحر، وتفصيلاً وتوثيقا للوعد بشارة المؤمنين، والوعيد إنذار الناس جميعا خصوصًا الكافرين..

ولنقرأ قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾﴾ (الآية: ١٣)

فنجد أنه قد حذرهم وأنذرهم وهددهم بأن ينالهم الإهلاك في الدنيا- بعد أن ذكر في الآية السالفة من آيات حديث السورة عن الإيمان عذاب الآخرة - مثلما حل بسلفهم الذين هم على نهجهم يسيرون ولآثار أقدامهم يقتفون، فقد جاء السلفَ الرسلُ بجميع الآيات المعجزات الدالات على صدقهم وأنهم مرسلون من عند الله عز وجل، فظلموا أنفسهم بالشرك والتكذيب والعناد والإصرار، مثلما جاءكم رسولنا ينذركم ويبشر الذين يؤمنون منكم،

(١) ينظر الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي، ج٦ ص١٥١، تح: أحمد الخراط، دار القلم دمشق، بدون.

فكذبتموه وتطاولتم عليه وافتريتم ورميتموه بما ليس فيه فقلتم: إنه ساحر وإن قرآنه سحر، فيوشك أن يُطبع على قلوبكم مثلما طُبع على قلوبهم، وأن يحل بكم الاستئصال مثلما حلَّ بهم، فتلك سُنَّةٌ ربَّانية لا تتخلف {كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ}

هذا كله في أسلوب تضافرت فيه المؤكدات، حيث افتتحت الآية بقسم في قوله: ولقد أهلكنا فاللام هي لام واقعة في جواب لِقَسَم مقدَّر، وأُتبِعَت بقد الداخلة على الفعل الماضي الدالة على التحقيق، لتزيد الكلام تأكيدا.

ثم عَرَّف المفعول به القرون باللام وجاء به مجموعـًا، ليدل بتعريفه على أنهم قد سمعوا بهذا الخبر من قبل من اليهود والنصارى المعاصرين لهم، ولكنهم كأنهم لم يسمعوا بشيء فهم يقعون في هُوَّة التكذيب مثلما وقع فيها سابقوهم، ولذا، فقد أقسم لهم على وقوع هذا الإهلاك لمن سلف، وأنه ليس ببعيد عنهم.

وقد يكون التعريف ليدل على شمول إهلاك جميع من كذَّب وظلّم نفسه بالشرك.

ولقد جاء المفعول به مجموعـًا ليدل على تكرار هذا الأمر وكثرته، فكلما كذَّب قرن من السالفين، أُهْلِكوا.

كما يدل الجار والمجرور (من قبلكم) على وجوب الاتعاظ بمن سلف.

وهكذا يتجلى في هذه الآية التي تحدثت عن عقوبة الإهلاك في الدنيا التي تتربص بالمكذبين، وفي سالفتها التي تحدثت عن شراب الحميم والعذاب الأليم الذي ينتظر اللذين كفروا في الآخرة فقد أُعِدَّ لهم خصيصـًا، تكاثر المؤكدات، دفعـًا لإنكارهم، وتأكيدا لإنذارهم، فلعلهم يرجعون.

وإذا ما انتقلنا إلى الآيات الواردات في البشرى فإننا سنرى عجباً بالإضافة إلى ما سنراه من شيوع المؤكدات، ولنقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٩﴾ (الآية: ٩)

وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٦٤﴾ (الآيات ٦٢ - ٦٤)

هذه الآيات جميعاً قد جاءت تفصيلا للإجمال الوارد في أول آيات الحديث عن الإيمان في السورة في قوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

حيث فُصِّلَت تلك البشرى نوع تفصيل في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾، وعلى الرغم من هذا التفصيل فما زالت البشرى مجملةً، فجاءت تلك الآيات، لِتُفَصِّلها تفصيلاً تاماً في أسلوب مفعم بأساليب التوكيد على اختلافها، تثبيتاً للمؤمنين وتطميناً لهم، وحثاً للمكذبين على مراجعة أنفسهم.

فنجد (إنَّ) المؤكدة[1] في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩﴾ (الآية: ٩).

ونجدها متضافرةً مع (ألا) الاستفتاحية [2] لتأكيد البشرى في قوله تعالى: {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)

كما نجد التعريف بالموصولية في قوله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} مثلما وجدناه آنفًا في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ۝٤﴾

ونجد تقديم المسند في قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾

كما نجد عبارةً دالة على حتمية نفاذ القضاء الإلهي، وحتمية تحقق الوعود الربانية في قوله تعالى: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ مثلما وجدنا عبارات مماثلة في المعنى في آية تفصيل عذاب الكافرين في الآخرة في قوله تعالى مؤكداً

---

(١) ذكر الإمام عبد القاهر عدة معان لـ(إنَّ)، ثم قال: ثم إنَّ الأصْلَ الذي ينبغي أنْ يكونَ عليه البناءُ، هو الذي دُوِّن في الكتبِ، من أنها للتأكيدِ، دلائل الإعجاز عبد القاهر الجرجاني، ص٣٢٥، تح: محمود شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، ط٣، ١٩٩٢م.

(٢) هي حرف، يرد لثلاثة معان: استفتاح الكلام وتنبيه المخاطب... وللعرض... والجواب... ينظر الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي، ص٣٨١، تح. د. فخر الدين قباوة، محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط١، ١٩٩٢م.

حتمية الرجوع إليه لأجل الجزاء: ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ﴾ ثم يُختم تفصيل بشارة المؤمنين بجملة مكتظة بالمؤكدات من تعريف المسند إليه بالإشارة دلالة على التعظيم، ومن الفصل بضمير الفصل، وتعريف الخبر باللام ووصفه بالعظيم في قوله تعالى ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ

وليس من المبالغة الحكم بوجود العجب عند تأمل آيات تفصيل البشرى للمؤمنين، وذلك لأن هذه الآيات لو وُضِعَت بإزاء الآيات السالفة الواردة في تفصيل الإنذار بالعذاب الأخروي، والاستئصال الدنيوي، لوُجِدَ تشابهٌ في الصياغة ومقابلةٌ دقيقة بين التفصيلين، لا يتأتى لبشر نظم شبيه شبيهها، خصوصـًا أنها غير متتابعة في ترقيم آيات السورة، فالآيتان المشتملتان على تفصيل عذاب الذين كفروا في الآخرة أو التهديد بإهلاكهم في الدنيا هما الآية الرابعة، والآية الثالثة عشرة، والآيات المشتملة على تفصيل البشرى هي الآية التاسعة، والآية الثانية والستون وما بعدها حتى نهاية الآية الرابعة والستين، وسوف أُثْبِتُها بادئا بآيات تفصيل الإنذار، مُثَنِّيًا بآيات تفصيل البشرى، ليتسنى لي التعليق عليها وبيان ما فيها من تشابهات وفروق، قال تعالى:

﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ۝٤﴾ (الآية: ٤)

﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝١٣﴾ (الآية: ١٣)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٩﴾ (الآية: ٩)

﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٦٤﴾ (الآيات: ٦٢ – ٦٤)

يمكن إجمال أوجه التشابه المعنوية واللفظية بين التفصيلين، مع بيان دقائق النظم، فيما يأتي:

١ – اشتمالهما على جمل تدل على حتمية نفاذ الوعود الإلهية، فقد ورد في آيات إنذار الكافرين قوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ﴾، وقوله تعالى: {كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ} و ورد في آيات البشرى للمؤمنين قوله تعالى: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٦٤﴾، وهذا يدل على أن رجوع جميع الخلق إلى الله واقع لا محالة وأن الجزاء مترتب عليه، ويستفاد ذلك من أسلوب تقديم المسند المفيد للقصر، ومن المفاعيل المطلقة المصادر المؤكدة، ومن إضافة الوعد إلى لفظ الجلالة الله، وإضافة الكلمات إلى الله بعد نفي تبديلها.

٢ – تعريف المسند إليه بالموصولية فيهما في قوله تعالى وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ﴾ وقوله

تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٤﴾ [سورة يونس:٦٣-٦٤]..

ولعل السر في ذلك الإشارة إلى نوع الخبر، أو كما قيل: الإيماء إلى وجه بناء الخبر(١) وبيان استحقاق كل فريق للجزاء الوارد في الخبر بما اتصف به من صلة الموصول، بالإضافة إلى كون الأفعال الواردة صلة للموصول أفعالاً ماضوية تدل على تحقق الفعل ورسوخ فاعله فيه، فالذين كفروا ثبت لهم الكفر واستقر تلبسهم به بدلالة الفعل الماضي، وكذلك الذين آمنوا فقد عُرِفوا بالإيمان وشاع عنهم يقول الرازي عند تحقيق المفهوم من الذي: (هو للإشارة إلى مفرد عند محاولة تعريفه بقضية معلومة... وهو تحقيق قولهم: "إنه مستعمل لوصف المعرف بالجمل)(٢).

وقد يفيد الفعل الماضي مسارعة كل فريق بالفعل الذي استحق به الجزاء الوارد في الخبر.

كما أن الاسم الموصول – فيما أرى – يجذب انتباه المتلقي ويجعله في حالة تَشَوُّف وترقب للصلة، لعلمه بضرورة إيرادها، فإذا ما أدركها، ترقب

(١) ينظر المصباح في المعاني والبيان والبديع لبدر الدين ابن مالك، ص١٦، تح: د. حسني عبد الجليل يوسف، مكتبة الآداب، بدون.

(٢) ينظر نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للرازي، ص٨٦، تح: الدكتور نصر الله حاجي مفتي أوغلي، دار صادر بيروت، ط١، ٢٠٠٤م.

نتيجتها المتمثلة في الخبر، بخلاف ما لو قيل الكافرون أو المؤمنون، فإن المتلقي لا يكون متيقظاً على النحو الذي يحدثه اسم الموصول.

ولقد أشاد الشيخ عبد القاهر بالقيمة البلاغية لورود (الذي) في الكلام فقال: (اعْلَمْ أنَّ لك في "الذي" عِلماً كثيراً، وأسراراً جمَّةً، وخفايا إذا بحثْتَ عنها وتصوَّرْتَها اطَّلَعْتَ على فوائدَ تُؤنِسُ النفسَ، وتُثلِجُ الصدرَ، بما يُفْضي بكَ إليه مِنَ اليقين، ويُؤدِّيه إليكَ من حُسْن التَّبيين... وعلى الجملة، فكلُّ عاقلٍ يَعلم بَوْنَ ما بينَ الخبرِ بالجملة مع "الذي" وبينَها معَ غيرِ "الذي"... فاعرفه، فإنه من المسائل التي من جهلها جهل الكثير من المعاني، ودخل عليه الغلط في كثير من الأمور.

فلعل الإمام يشير بعبارته الأخيرة (التي من جهلها جهل الكثير من المعاني إلى مدخل (الذي) في إعجاز القرآن)[1].

ومن أدق المواضع التي ورد فيها اسم الموصول (الذي) قوله تعالى حكاية عما قاله فرعون عند غرقه: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ٩٠﴾ (الآية: ٩٠)

فلم يصرح فرعون بلفظ الجلالة الله، وإنما ذكر الاسم الموصول (الذي) وصلته جملة ﴿ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، فقد استكبر أن يفرد الله بالألوهية،

---

(١) دلائل الإعجاز، ص٢٠٠ وما بعدها بتصرف، وينظر شرح دلائل الإعجاز للدكتور محمد إبراهيم شادي، ص٢٨٣، دار اليقين المنصورة مصر، ط٢، ٢٠١٣م.

فلم يقل: آمنت أنه لا إله إلا الله، وكأنه ما قال الذي قاله إلا لينجو من الغرق ولسان حاله أقولها الآن وبعد النجاة فلكل حادث حديث.

فحكاية القرآن لقوله هذا بهذه الألفاظ، وبتوظيف الاسم الموصول بدلا من لفظ الجلالة، مُعْرِبٌ عن دخيلة نفسه الخبيثة، بالإضافة إلى أنه لم يعلن الإيمان برسالة موسى فكان إيمانه ناقصاً لغاية يرجوها وهي النجاة، ولعل هذا هو السبب في عدم انتفاعه بإيمانه، مع صدوره في غير وقت القبول.

ومن الدقيق أيضاً في مجيء اسم الموصول (الذي) قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٠٤﴾ (الآية: ١٠٤)

حيث جاء نعتاً للفظ الجلالة (الله) وجاءت صلته جملة (يتوفاكم)، وذلك لما فيه من (التهديد لهم، أي أعبد الله الذي يتوفاكم فيفعل بكم ما يفعل من العذاب الشديد، ولكونه يدل على الخلق أولاً وعلى الإعادة ثانياً، ولكونه أشد الأحوال مهابة في القلوب ولكونه قد تقدم ذكر الإهلاك والوقائع النازلة بالكفار من الأمم السابقة فكأنه قال أعبد الله الذي وعدني بإهلاككم)[1].

وهذا الذي قلناه في تعريف المسند إليه بالموصولية، ينسحب على ورود الاسم الموصول في حديث السورة عن الإيمان مطلقا سواء كان مسنداً إليه أو غير ذلك.

(١) ينظر فتح البيان للقنوجي ج٦ ص١٣٠.

فقد جاء مفعولا به في قوله تعالى وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾

وفي قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٤﴾ (الآية: ١٠٤)

وجاء معطوفـًا على المفعول في قوله تعالى ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ (الآية: ١٠٣)

وجاء اسمـًا لـ (إنَّ) وأصله المبتدأ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٩﴾ [سورة يونس:٩].

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٩٦﴾ (الآية: ٩٦)

وجاء مجروراً في قوله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٣٣﴾ (الآية: ٣٣) وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٠﴾ (الآية: ١٠٠)

وجاء محتملاً للابتداء والمفعولية في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٤﴾

وجاء محتملاً للابتداء وللبدلية في قوله تعالى ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣﴾ (الآيات: ٦٢ - ٦٣)

وغير ذلك من مواضع اسم الموصول في السورة، فهو جدير بدراسة مستقلة تكتنه أسراره وتبحث عن مقاماته ومواقعه المختلفة ودلالاتها، وقد ألمَحْتُ إلى شيء منها، وغاية ما في وسع هذا البحث أن يثبت أنه قد كان شائعًا في حديث السورة عن الإيمان، وأن السر وراء ذلك الشيوع، قد كان القصد إلى المعاني المذكورة في صلته، إما لذاتها، أو لما تُفضي إليه من نتائج، بالإضافة إلى ما يحدثه في المتلقي من حالة تَيَقُّظ وانتباه لعلمه بأن كل اسم موصول لابد له من صلة، فإذا ما ظفر، بها ترقب ما يترتب عليها، فإن ناله بعد تَشَوُّف، وترقب، تمكن في نفسه فضل تمكن.

٣- **التشابه في الصياغة** بين قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾، مما يدل على أن كلا الفريقين مُصِرُّون على السلوك الطريق الذي اختاروه لأنفسهم، فهما يُحْدِثان في كل يوم من الأفعال والأقوال ما يؤكد إصرارهم وتمسكهم باختيارهم، ولذا جُمِعَ في العبارة بين الفعل الماضي كانوا ليدل على عراقتهم فيه، والفعل المضارع يكفرون، و يتقون، ليدل على تجدد هذا الفعل منهم في كل يوم، ولذا فقد كان كل فريق مستحقًا للجزاء المترتب على اعتقاده وعمله.

٤- **تقديم الخبر شبه الجملة (لهم) على المبتدأ** في قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٤﴾

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [سورة يونس:٦٣-٦٤].، وقد أفاد هذا التقديم قصر المسند إليه شراب من حميم وما عُطِف عليه، على كونه للذين كفروا، كما أفاد قصر البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة على كونها للمؤمنين، وفي هذا إيناس وتثبيت للمؤمنين، وتخويف ودعوة للكافرين إلى سلوك الطريق المستقيم.

٥- تكاثر المؤكدات وتآزرها في كلا الحديثين: الحديث عن الإنذار، والحديث عن التبشير، وقد أفضتُ في بيانه آنفًا.

٦- ورود اسم الإشارة في آخر آية الحديث عن الإهلاك في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٣﴾﴾وفي آخر آية البشرى للمؤمنين في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾، ليدل في الموضعين على عظم المشار إليه، ففي الإشارة إلى الإهلاك يدل على كون هذه العقوبة عقوبة الاستئصال مما يُستعظم فلا ينبغي الاستهانة به، وقد يُحمل على معنى أن الصيرورة إلى هذه الغاية من السخط الإلهي الجالب للإهلاك هي غاية الذل والمهانة لهؤلاء الظالمين.

وفي الإشارة إلى البشرى، يدل على عظم الجزاء، وأنه مما لا ينال بسهولة، فلابد من الإيمان والعمل الصالح.

ويدل على هذا وصف الخبر بلف العظيم في قوله: الفوز العظيم.

٧- بمقابلة الآيات بعضها ببعض يمكن أن نفهم قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ بمعنى أنه قد نفى عن الأولياء الخوف بجميع صنوفه، ومختلف أسبابه، حيث جاءت النكرة في حيز النفي فأفادت العموم ثم كرر النفي لتأكيد المعنى حيث نفى عنهم أيضًا الحزن، وأكد نفي الحزن بضمير الفصل وبالفعل المضارع يحزنون أي إنهم لا يجدون هذا أبداً فأولياء الله لا يُخاف عليهم فهم الفائزون السعداء الآمنون في الدنيا والآخرة، المُبَشَّرون فيهما، وهم المطمئنون بوعد الله لهم – ووعوده لا تُخلَف- فلا يعرف الحزن طريقًا لقلوبهم ليقينهم بأن كل ما أصابهم أو ما فاتهم إنما هو بتقدير الله الذي تولوه بالطاعة وآمنوا به وكانوا يتقون.

وفي المقابل نجد الكافرين الظالمين لأنفسهم المجرمين في حقها، المتجاوزين جميع الحدود، يُخاف عليهم أن تحيق بهم العقوبة الدنيوية التي لحقت بأسلافهم من المكذبين، ويخاف عليهم أن يُطبع على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

وقد هُدِّدوا بهذا في آية إهلاك القرون السالفة، وهم في هذا كله متربصون قلقون يتجرعون مرارة الحزن في الدنيا قبل الآخرة، التي ينتظرهم فيها شراب من حميم وعذاب أليم.

فَبِوضع الآيات في مقابلة بعضها البعض يتبين لنا هذا، وفيه تَرْبِيتٌ على رؤوس المؤمنين المتقين وهدهدةٌ لقلوبهم، وفيه حثٌّ للمكذبين المعاندين على الرجوع قبل فوات الأوان، فالخطاب القرآني، الإنذاري والتبشيري،

دائما ما يترك سلم النجاة منصوبا للمعاندين لينقذوا أنفسهم من فوهة البركان التي تكاد أن تبتلعهم.

والآيات من أول حديث السورة عن الإيمان إلى آخره حافلة بالمؤكدات – على اختلافها– وذلك لما مر من إنكار الكافرين، ومن ضرورة التوكيد في مقامات الوعد والوعيد، وفيما ذكرته الكفاية.

ثالثا- بلاغة اصطفاء الكلمة والتراكيب في معجم الحديث عن الإيمان في السورة

إن المتأمل في حديث السورة عن الإيمان يدرك ورود بعض الألفاظ التي تتقارب في المعنى ويوصف بها شيء واحد مع فروق دقيقة ومناسبة كل لفظ للآية ولسياق الوارد فيه، كأوصاف الكافرين، وأوصاف المؤمنين كما سيأتي بيانه.

كما يدرك تكرار بعض الجمل والتراكيب التي تتفق في أصل المعنى مع فروق في الصياغة تلائم السياق الذي وردت فيه.

و يمكن تقسيم هذه الألفاظ وتلك التراكيب إلى عدة حقول دلالية على النحو الآتي:

الأول الدلالة على حتمية نفاذ الوعود الإلهية ويندرج تحته

وعد الله حقا، وجاء في سياق بيان حتمية رجوع الخلق إلى الله للمجازاة.

قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾

﴿حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، وجاء في سياق بيان القضاء الإلهي بعدم إيمان الفاسقين.

قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٣٣﴾ [سورة يونس:٣٣].

﴿حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، وهو كسابقه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة يونس:٩٦].

﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾، وجاء في سياق تأكيد البشرى للمؤمنين.

قال تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ٦٤﴾ (الآية: ٦٤)حقا علينا ننجي، وهو كسابقه.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٠٣﴾ (الآية: ١٠٣)

وفي هذا تأكيد للإنذار والتبشير المذكورين في أول الحديث عن الإيمان مأموراً بهما الرسول، ويستفاد ذلك التأكيد من لفظ حق الذي يدل على الوجوب، والذي ورد في جميع الآيات في السياقات المذكورة (فالْحَاءُ وَالْقَافُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى إِحْكَامِ الشَّيْءِ وَصِحَّتِهِ. فَالْحَقُّ نَقِيضُ الْبَاطِلِ... وَيُقَالُ حَقَّ الشَّيْءُ وَجَبَ)(١).

(١) ينظر مقاييس اللغة لابن فارس، مادة الحاء والقاف.

ولقد تكررت هذه المادة (حق) في سورة يونس في مواضع كثيرة، وهي جديرة بدراسة مستقلة تميط اللثام عن مواقعها وأسرارها.

كما يستفاد تأكيد الإنذار والتبشير من إضافة الوعد إلى لفظ الجلالة الله، وإضافة لفظ كلمة إلى لفظ ربك وإضافة لفظ لكلمات إلى لفظ الجلالة الله، وهذا كله قاطع في حتمية النفاذ.

ويزيد هذا الوجوب تأكيدا ورود هذا اللفظ حق في صيغة المصدر أو في صيغة الفعل الماضي.

الثاني أوصاف الكافرين ويندرج تحته

- ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾
- ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾
- ﴿ لَمَّا ظَلَمُواْ ﴾ [
- ﴿ ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ١٣﴾
- ﴿قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ٧٤﴾
- ﴿لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾
- ﴿ ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ ﴾
- ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ٤٠﴾

تعددت أوصاف الكافرين لتذكر أنهم فقط لا يعرضون عن الإيمان بما جاء به الرسول وإنما هم مع هذا يظلمون أنفسهم ويتجاوزون في حق أنفسهم وحق غيرهم وأنهم مفسدون في الأرض بصنيعهم هذا وأنهم يرتكبون في كل

يوم جريمة تثقل ميزان خطاياهم، وأنهم منحرفون عن الأصل لأن الإيمان متوافق مع الفطرة ومن خالفه فقد فسق عنها.

ومن دقائق التعبير بهذه الألفاظ، وملاءمة كل لفظ لسياقه الوارد فيه، التعبير باسم الفاعل الكافرون في،: قال الكافرون وذلك في سياق بيان عجبهم، وافترائهم على الرسول، ورميه بالسحر.

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾ (الآية: ٢)

واللطيف والدقيق في هذا أنه ذكرهم ههنا بلفظ (الكافرون) بصيغة اسم الفاعل، وذكرهم فيما بعد باسم الموصول وصلته الجملة الفعلية الذين كفروا، وبيان ذلك أن معنى الكفر هو الستر والتغطية (وَالْكُفْرُ: ضِدُّ الْإِيمَانِ، سُمِّيَ لِأَنَّهُ تَغْطِيَةُ الْحَقِّ. وَكَذَلِكَ كُفْرَانُ النِّعْمَةِ: جُحُودُهَا وَسَتْرُهَا)(١).

فكفار مكة يعلمون أنه ليس ساحراً، فقد عاش بينهم أو لبث فيهم عمراً من قبله، ولكنهم يسترون هذا الحق الذي يعلمون بافترائهم عليه وبوصفه بما ليس فيه، ولذا فإني أرى أنه ذكرهم ههنا بلفظ (الكافرون) لبيان تلبسهم بما قالوا المذكور في قوله: إن هذا لساحر مبين فذاك القول هو كفرهم.

وأما ذكرهم باسم الموصول الذين كفروا فقد سبق أن بينته، وخلاصته بيان استحقاقهم لما ترتب على هذا الكفر.

ومن الدقيق أيضا أنه وصفهم بالظلم وبالإجرام في آية إهلاك القرون السالفة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ

(١) ينظر مقاييس اللغة لابن فارس، الكاف والفاء والراء.

﴿رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٣﴾ (الآية: ١٣).

وذلك أن (الظَّاءُ وَاللَّامُ وَالْمِيمُ أَصْلَانِ صَحِيحَانِ، أَحَدُهُمَا خِلَافُ الضِّيَاءِ وَالنُّورِ، وَالْآخَرُ وَضْعُ الشَّيْءِ غَيْرَ مَوْضِعِهِ تَعَدِّيًا)[1].

فباستحضار هذا المعنى أعني معنى الظلمة وهو ضد الضياء والنور إلى جانب معنى وضع الشيء في غير موضعه تعديـًا يتبين لنا مدى ما جناه المشركون على أنفسهم فقد ظلموها، وألقوا بها في غيابات الظلمة مؤثرين لها على نور الإيمان، وقد ألقت لهم رسلهم أطواق النجاة، وأسرجوا لهم شموس الحق، فأعرضوا وأصروا على كفرهم، وآثروا التخبط في مجاهل ظلماتهم، فاستحقوا بذلك حلول العقوبة الدنيوية وهي الإهلاك

ولأن الله عز وجل قد علم بعلمه المحيط أنهم لا يؤمنون أبدا وإن أُمهلوا، فقد انقطع حبل الرجاء في رجوعهم، بسبب إصرارهم وبسبب ما علمه الله منهم فقد وصفهم في آخر الآية بلفظ المجرمين، لأن هذا الوصف يجمع عدة معان منها أنهم مذنبون وأنهم مشركون وأنهم مكتسبون لهذا الفعل الذي استحقوا به العقوبة ومنها وهو الأهم معنى القطع[2] لأن هؤلاء قد انقطع حبل الرجاء فيهم من جهة إصرارهم ومن جهة أنهم قد حقت عليهم كلمة الله وما علمه عنهم بعلمه الأزلي، ولذلك فقد قيل وما كانوا ليؤمنوا، ويتناسب هذا اللفظ المجرمين بالنظر إلى معانيه اللغوية بالعقوبة التي حلَّت بهم وهي

---

(١) ينظر مقاييس اللغة الظاء واللام والميم.

(٢) ينظر مقاييس اللغة لابن فارس الجيم والراء والميم.

عقوبة قطع الدابر أو الاستئصال والإهلاك، تلك العقوبة التي بنيت الآية على بيانها مؤكدةً، مع بيان أسبابها، ولذا فقد خُتمت الآية بلفظ المجرمين لتدل على جميع ما ذُكِر.

وأما الآية التي وصفوا فيها بالمعتدين، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ (الآية: ٧٤).

فقد كان بناؤها لبيان أداء الرسل لمهمتهم على أكمل وجه، وأن الحجة قد أقيمت على المعاندين المكذبين، ولذا فقد افتتحت بذكر بعثة الرسل ثم مبادرتهم ومسارعتهم بإبداء الحجج القاطعة بصدقهم يستفاد هذا من العطف بالفاء في قوله. فجاؤوهم بالبينات، بخلاف الآية السالفة حيث قيل هناك: وجاءتهم رسلهم بالبينات بالواو دون الفاء، لكون هذه الجملة جملة حالية أي قد ظلموا وقد جاءتهم رسلهم بالبينات يقول الزمخشري: (لَمَّا ظرف لأهلكنا: والواو في وَجاءَتْهُمْ للحال، أي ظلموا بالتكذيب وقد جاءتهم رسلهم بالحجج والشواهد على صدقهم وهي المعجزات)[1].

ولكن الكفار قد سارعوا أيضـًا بالتكذيب ولذا فقد عُطِف نفي إيمانهم هنا على ما قبله بالفاء الدالة على الترتيب والتعقيب في قوله: فما كانوا ليؤمنوا، في الوقت الذي عُطف التركيب نفسه في الآية السالفة بالواو على ظلموا، ليدل على أن إهلاكهم قد كان لهذين السببين الظلم واستبعاد إيمانهم لعلم الله

(١) ينظر الكشاف ج٢ ص٣٣٣.

فيهم ذلك يقول الزمخشري: (وقوله: وَ﴿مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ﴾ يجوز أن يكون عطفًا على ظلموا، وأن يكون اعتراضًا واللام لتأكيد النفي، يعني: وما كانوا يؤمنون حقًا، تأكيداً لنفى إيمانهم، وأن الله قد عَلِمَ منهم أنهم يصرون على كفرهم، وأن الإيمان مستبعد منهم. والمعنى: أن السبب في إهلاكهم تكذيب الرسل، وعلم الله أنه لا فائدة في إمهالهم بعد أن ألزموا الحجة ببعثة

وهذا التركيب أعني الكون المنفي المتبوع بلام الجحود، تركيب قد تكرر في حديث السورة عن الإيمان، حيث جاء في آية إهلاك القرون السالفة وجاء هنا في آية بعثة الرسل، لبيان استبعاد الإيمان من الذين حقت عليهم كلمة الله، ولام الجحود (هي المؤكدة لنفي خبر كان ماضية لفظًا نحو: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾ أو معنى نحو: ﴿لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا ١٣٧﴾ وسميت مؤكدة لصحة الكلام بدونها، كما تقول في نحو: ما كان زيد ليفعل: ما كان زيد يفعل، لا لأنها زائدة لا معنى لها، إذ لو كانت كذلك لما كان لنصب الفعل بعدها وجه صحيح، وإنما هي لام الاختصاص، دخلت على الفعل لقصد معنى: ما كان زيد مقدراً، أو هامًا، أو مستعداً لأن يفعل، وكذا قال سيبويه: "وكأنك إذا مثلت قلت: ما كان زيد لأن يفعل، أي ما كان زيد لهذا الفعل")[2].

---

(١) ينظر الكشاف ج٢ ص٣٣٣.

(٢) ينظر شرح تسهيل الفوائد لابن مالك ج٤ ص٢٣، تح: د. عبد الرحمن السيد، د. محمد بدوي، هجر للطباعة والنشر والإعلان، ط١، ١٩٩٠م.

ومن المعلوم أن كثيرا من الرسل قد أُوذوا من أقوامهم و نالهم منهم صنوف الاعتداءات حتى القتل، ولذا فقد خُتِمَت هذه الآية ببيان الطبع على قلوب المعتدين فوصفهم باسم الفاعل من الفعل اعتدى بوزن افتعل الدال على معنى التسبب (فزيادة التاء بإزاء زيادة التسبب في حصول الأمر، فعمل وكسب يطلقان على كل عمل وكل كسب، واعتمل واكتسب لا يطلقان إلا على ما في حصوله تكلف وجهد)[1]. وكذلك اعتدى؛ فإنه يدل على مبالغتهم في إيذائهم لرسلهم وعدوانهم عليهم (وَالْعُدْوَانُ: الظُّلْمُ الصُّرَاحُ. وَالِاعْتِدَاءُ مُشْتَقٌّ مِنَ الْعُدْوَانِ)[2].

ومن الدقيق في هذه الآية ذكر الطبع على القلوب مسبوقًا بصفة ذم ومتبوعًا بصفة ذم أخرى فقد تكاثرت عليهم صفات الذم في هذه الآية بين وصف باستبعاد الإيمان والإصرار على التكذيب، ووصف لهم بالاعتداء وجاء في القلب من ذلك الوصف بالطبع على قلوبهم.

واصطفاء لفظ الطبع فيه أيضًا دقة فلم يقل نختم على قلوبهم... وذلك لأن هذه اللفظة تدل على معنيين محتملين معنى السجية أو معنى الصدأ والدنس، وعليه فيكون معنى نطبع على قلوب المعتدين أنهم لاختيارهم الكفر وإصرارهم عليه، فقد غدا سجية وطبعًا لهم، وهذا يتآزر مع قوله فما كانوا ليؤمنوا، أي لأنهم مصرون عليه فصار كأنه من جبلتهم، وربما يكون المراد أنهم عُوقِبُوا بتكذيبهم بأن صدأت قلوبهم فلا تعرف للإيمان طريقا ولا

(١) ينظر شرح تسهيل الفوائد لابن مالك، ج٣ ص٤٥٥.

(٢) ينظر مقاييس اللغة العين والدال والحرف المعتل.

للهدى سبيلاً، قال الفيروزآبادي (الطَبْع، والطبيعة، والطِّباع: السّجِيَّة التي جُبل عليها الإنسان... والطَّبْع: الخَتْم: وهو التأثير في الطِّين. وقوله تعالى: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، أي نختم عليها مجازاة لهم فلا يدخلها الإيمان... (وطَبَعُ السيفِ: صَدَؤُهُ) رجل طَبِعٌ: لئيم دَنِس. وقد حَمَل بعضهم قوله تعالى: {طَبَعَ الله على قُلُوبِهِمْ} على ذلك، ومعناه: دنَّسه، كقوله: ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾، وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾)[1].

يقول الدكتور عبد العظيم المطعني: (والذي نرجحه أن كل مواضع " طبع " في القرآن مشتقة من "الطَبَعُ" بفتح الباء، لذلك اختصت بالذَم وسوء المصير، لأن القلوب المطبوع عليها صارت "فاسدة" كَما يُفسِد "الطَبَعُ" الحديد، وهذا هو سبب تفرقة القرآن بين "طبع" و "ختم" فيما نفهم، وتستريح إليه نفوسنا، حيث تأتي ختم في مقامات المدح، ومقامات الذم على السواء.

وقد التزم المجاز في جميع صور طبع في القرآن، حيث شُبّه فساد قلوبهم بالكفر والنفاق بفساد الحديد يعلوه الصدأ والأوساخ[2].

---

(١) ينظر بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي ج٣ ص٤٩٥ بتصرف.

(٢) ينظر دراسات جديدة في إعجاز القرآن د. عبد العظيم المطعني، ص١٨٤ وما بعدها بتصرف، ط١، ١٩٩٦م.

وأما عن التعبير عن الكفر بنفي الإيمان مقترنـًا بذكر الإفساد فقد جاء في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾ (الآية: ٤٠)

والضمير في قوله: (به) راجع إلى القرآن الكريم، ولعل السر وراء التعبير عن الكفر بنفي الإيمان في هذا السياق هو بيان أن الأصل هو الإيمان، وأن العدول عنه مخالفة للأصل، وانحراف عن الفطرة السليمة، ويؤيد ذلك قوله قبلاً : ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة يونس:٣٣].إذ(الفسق هو الْخُرُوجُ عَنِ الطَّاعَةِ. تَقُولُ الْعَرَبُ: فَسَقَتِ الرُّطَبَةُ عَنْ قِشْرِهَا: إِذَا خَرَجَتْ)[١]. ونفى إيمانهم هنا أيضـًا للدلالة على شذوذه عن الأصل.

ولعله ذكره بنفي الإيمان؛ ليتحقق تقسيم موقف المكذبين في الحال، وفي الاستقبال بطباق الإيجاب، والسلب فقد قيل إن المراد بقوله: (فمنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به) أي: (يصدق به في نفسه، ويعلم أنه حق، ولكنه يعاند بالتكذيب. ومنهم من يشكّ فيه لا يصدق به، أو يكون للاستقبال، أي: ومنهم من سيؤمن به ومنهم من سيصرّ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ بالمعاندين، أو المصرين)[٢].

الثالث الإصرار على الكفر وعدم الجدوى من الإمهال ويندرج تحته

- ﴿وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟﴾

(١) ينظر مقاييس اللغة الفاء والسين والقاف.

(٢) ينظر الكشاف ج٢ ص٣٤٨.

- ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾
- ﴿نَطْبَعُ﴾
- ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾
- ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾
- ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ﴾
- ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾

في هذا تأكيد للسنة الربانية التي تقضي بأن الإهلاك والعذاب يكون لمن يكفر ولا يُرجى إيمانه إن أُمهل لأن الله عز وجل يحيط علمه بكل شيء فيعلم من يكون منه الإيمان ومن يصر على العناد، وفيه تعليل لاستثناء قوم يونس وهو أن الله علم منهم أنهم سيؤمنون ويخلصون في التوبة فلم يستأصلهم مثلما استأصل غيرهم ممن علم أنهم لا يؤمنون ولو أحدثوا الإيمان عند معاينة العذاب فلم ينفعهم لعلمه بعدم صدق توبتهم مثلما كان من فرعون عند غرقه

وقد مر بيان الدقائق في هذه الآيات جميعا، إلا جملة: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ فيقوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ (الآية: ٧٨)

- وهي دالة على تمسك المكذبين بسابق معتقداتهم التي ورثوها عن آبائهم، وأنهم غير متحولين عنها أبدا، مما يتوافق مع ما ذُكر آنفًا من الطبع على القلوب، ولذا فقد (صِيغَتْ جُمْلَةُ: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾

اسْمِيَّةً دُونَ أَنْ يَقُولُوا وَمَا نُؤْمِنُ لَكُمَا لِإِفَادَةِ الثَّبَاتِ وَالدَّوَامِ وَأَنَّ انْتِفَاءَ إِيمَانُهُمْ بِهِمَا مُتَقَرِّرٌ مُتَمَكِّنٌ لَا طَمَاعِيَةَ لِأَحَدٍ فِي ضِدّه)[1].

هذا، مع تأكيد النفي بدخول الباء على الخبر بمؤمنين.

الرابع أداء الرسل لمهمتهم على الوجه الأكمل ويندرج تحته

- ﴿وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾
- ﴿فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾]

هذا يؤكد معنى آية واردة في السورة قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ (الآية: ٤٤)

ويؤكد سُنَّة ربَّانية واردة في قوله تعالى في سورة الإسراء ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾﴾ (الآية: ١٥)

فالله يقيم الحجة على خلقه قبل أن يحاسبهم، وسورة الإسراء نزلت قبل يونس وهذه الآية وجه من وجوه التناسب بينهما.

وقد مر بيان السر في العطف بالواو في إحداهما، والسر في العطف بالفاء في الأخرى.

الخامس أوصاف المؤمنين وتأكيد البشرى ويندرج تحته

- ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾
- ﴿قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ﴾

---

(١) ينظر التحرير والتنوير ج١١ ص٢٥٢.

- ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ﴾
- ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٩﴾
- ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾
- ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾
- ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾
- ﴿نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾
- ﴿نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾
- ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٧﴾
- : ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾
- بينت هذه العبارات درجات البشرى أو درجات الجزاء التي ترتقي واحدة بعد واحدة مجازاة لهم على مسارعتهم وسبقهم إلى الإيمان قدم صدق عند ربهم، فقد بُشِّروا بأن جزاءهم سيكون بالقسط، ثم، فصَّله بالهداية الربانية وبجنات النعيم التي تجري الأنهار من تحتهم فيها، ثم بلغ التبشير الغاية في وصفهم بكونهم أولياء لله وأنهم لا خوف عليهم ولاهم يحزنون، وقد مر بيان الدقائق في صياغة هذه الآيات جميعا.

وقبل أن أترك الحديث عن معجم الألفاظ والتراكيب التي تكرر ورودها في حديث السورة عن الإيمان، أود الإشارة إلى تكرار تركيب (كذلك)،

حيث جاء في أربعة مواضع في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٣﴾ [سورة يونس:١٣]،، وفي قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٣٣﴾ [سورة يونس:٣٣]، وفي قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٧٤﴾ (الآية: ٧٤)، وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ (الآية: ١٠٣)

والملاحظ أنها جاءت في ثلاثة مواضع كان الحديث فيها عن إهلاك المكذبين، والطبع على قلوبهم بعدم الإيمان، ووصفهم بالمجرمين أو بالذين فسقوا، أو بالمعتدين، وذلك بعد أن صرح في الآية الأولى بقوله: وما كانوا ليؤمنوا، وصرح في الثانية بقوله: حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون، وصرح في الآية الثالثة بقوله: فما كانوا ليؤمنوا.

وجاءت معانقة لقوله: حقا علينا في الآية الرابعة لبيان سُنَّة الله في إنجاء رسله والمؤمنين.

والذي أراه فيها، أنها جاءت لبيان أن سُنَّة الله في إهلاك المكذبين، والطبع على قلوبهم، أو سُنَّته في إنجاء الرسل والمؤمنين، والأول إنذار، والآخر، تبشير، سُنَّة راسخة منذ خلق الله الخلق ومستمرة إلى قيام الساعة، لم تتخلف إلا بمشيئة الله مرةً واحدة مع قوم يونس الذين استثنوا بظاهر النص القرآني في هذه السورة للأسباب المذكورة في غير موضع من هذا البحث.

ومعلوم أن الكاف أداة من أدوات التشبيه ودخولها على اسم الإشارة (ذلك) الذي هو للبعيد يدل على عِظَم المشار إليه المشبه به وبلوغه الغاية، وهو في الآية الأولى إهلاك الأمم السالفة إهلاكـًا تاما استأصل شأفتهم، وفي الآية الثانية الحق المذكور آنفـًا أي مثل ذلك الحق حقت كلمة ربك، وفي الآية الثالثة مثل ذلك الطبع نطبع، وفي الآية الرابع مثل ذلك الإنجاء ننجي.

ويرى الدكتور احمد بدوي رأيـًا محتملاً في (كذلك) حيث استقرأ مواضع ورودها في القرآن، وتوصل إلى أنها تأتي لثلاثة معان: أولها التشبيه، وثانيها الدلالة على بلوغ المشبه به الكمال، ولا يكون التشبيه مقصودا، حيث يكون المراد الكناية فهي بمعنى مثل في قولك مثلك لا يكذب أي أنت لا تكذب فتأتي (كذلك) لتوجيه النظر إلى ما سبقها فحسب، وتكون الكاف حينئذ إشارة إلى أن ما ذكر في الآيات وأشير إليه، قد بلغ من الكمال مبلغا عظيما، لدرجة أنه صار نموذجا كاملا، يمكن أن يتخذ مثالا، يشبه به سواه، فقد أفادت الكاف بلوغ المعنى تمامه.

وتندرج الآيتان الأولى والثالثة تحت هذا المعنى من وجهة نظر الدكتور بدوي.

بينما تندرج الآيتان الثانية والرابعة تحت المعنى الثالث

وهو معنى التحقيق والتثبيت، فتكون بمعنى قد، فلا يكون التشبيه مقصودا، وإنما المراد الأمر هو ما أخبرت به، لا ريب فيه وربما جاءت

إفادتها للتحقيق، من كثرة مجيئها لبيان التطابق، واستعملت في لازم معناها الأصلي الذي تنوسي[1].

رابعا: تكاثر الأساليب الإنشائية لتدعيم حديث السورة عن الإيمان

فقد ورد الإنشاء الطلبي أمراً ونهيـاً واستفهامـاً ونداءً في مواضع كثيرة من حديث السورة عن الإيمان، ليؤكد الإنذار والتبشير الذين يمثلان أساس ذلك الحديث، وليثبت بعض الحقائق المتعلقة بقضية الإيمان، وليعمل على ترسيخها في القلوب والعقول، متكئا على ما له من خصوصية في تحريك النفوس وبعثرة المشاعر، واجتذاب الأسماع.

وذلك أن أول آية قد ورد فيها فعلان من أفعال الأمر في قوله تعالى أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا، ثم جاء فعل بَشِّر مرة أخرى في قوله تعالى وبشر المؤمنين، وذلك لبيان أن الإنذار والتبشير من الله عز وجل مأموراً بتأديتهما الرسول، فما عليه سوى البلاغ، وفي هذا تدعيم لصدق الرسول ودعوة إلى الإيمان به، والإذعان لما يدعوهم إليه.

وقد تضافر الأمر مع الشرط والنداء، وتقديم المتعلق في قول موسى لقومه فيما حكاه القرآن في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ٨٤﴾ (الآية: ٨٤)

حيث ناداهم بأداة النداء يا التي هي لنداء البعيد ليحثهم على الانتباه لما سيلقيه عليهم، ولعله قد استشعر غفلتهم وذهولهم الناجمين عن خوفهم

(١) ما ذكرته هو خلاصة كلام الدكتور وقد جاء في كتابه في عدة صفحات ينظر من بلاغة القرآن د. أحمد بدوي ص١٦٣ وما بعدها، نهضة مصر القاهرة، ٢٠٠٥م.

المفرط من بطش فرعون فناداهم بيا ليوقظهم من غفلتهم، وليردهم إلى صوابهم، ويؤكد هذا ما ذكرته الآية السابقة من قلة الذين آمنوا لموسى بتوظيف أسلوب القصر بالنفي والاستثناء تأكيداً للخبر، ثم ما ذُكر من علو فرعون وكونه من المسرفين في أسلوب مؤكد شدما يكون التوكيد حيث أدخلت عليه إنَّ واللام وذلك في قوله تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ (الآية: ٨٣)

مما دفع موسى إلى الشك في إيمانهم، أو الخشية من ارتدادهم، ولذا عبر عن هذا الشك، وتلك الخشية بتوظيفه لأداة الشرط (إن) التي تأتي للدلالة على ندرة الأمر أو الشك في وقوعه فقال لهم: ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾، ثم كرر الشرط بالأداة نفسها إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ، مما يدل على سيطرة الشك والخشية على نفسه.

ولذا فقد أمرهم بالتوكل على الله، مقدمـًا المتعلق (فعليه) على فعل الأمر (توكلوا)، ليقصر التوكل على كونه على الله وحده، وقد أفاد هذا الأمر بتضافره مع دلالة تقديم المتعلق، إشاعة الطمأنينة في قلوبهم، وانتزاع الخوف الذي زلزل أركانهم.

وقد جاء الأمر، اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ للدلالة على معنى الدعاء والتضرع إلى الله عز وجل، مع بيان شدة غضب موسى على فرعون وملئه وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن

سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ (الآية: ٨٨)

فنجد موسى قد كرر في دعائه لفظ ربنا ثلاث مرات، حاذفًا أداة النداء للدلالة على قربه من الله عز وجل، وإظهار التضرع، وشدة الرغبة في حصول المطلوب، ولذا فقد جاء جواب الأمر فلا يؤمنوا فدعا عليهم بعدم الإيمان.

كما جاء الأمر للدلالة على معنى التفكر والاعتبار والتدبر في الآيات الكونية في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ (الآية: ١٠١)

وجاء للتهديد والوعيد بإنزال العذاب الذي نزل بالأمم السالفة في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ (الآية: ١٠٢) وفي هذا تأكيد للإنذار الذي مر بيانه في غير موضع.

وأما النهي فقد جاء في آخر حديث السورة عن الإيمان فيما ذكره الرسول من أنه مأمور بالإيمان منهي عن الشرك بالله ومنهي عن دعاء ما لا ينفع ولا يضر، وفي هذا ما فيه من تناسب مع حديث السورة عن الإيمان وفيه أيضًا من حسن الختام ما مر بيانه، قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنۡ أَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗا

وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ (الآيات: ١٠٤ – ١٠٦)

فنجد آخر جملة فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ قد جاءت في أسلوب الشرط وأداته (إن)، ليدل على معنى أنه لا ينبغي أن تفعل، أو أنه من المستبعد فعل ذلك ممن تدبر الآيات وهداه الله إلى الإيمان.

ومثلها قول الرسول لقومه أو للناس جميعًا ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾

فجاءت أداة الشرط (إن) للدلالة على استبعاد شكهم بعدما جاءهم به من البينات، وفيه توبيخ لهم.

بخلاف أداة الشرط (إذا) التي تأتي لتدل على تحقق الوقوع(١)، وقد جاءت في قوله تعالى: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ﴾.

(١) جاء في الكليات ما نصه (وَالْأَصْل فِي كلمة (إِذا) الْقطع، أَي قطع الْمُتَكَلّم بِوُقُوع الشَّرْط، وَذَلِكَ لغَلَبَة اسْتِعْمَال (إِذا) فِي المقطوعات، كَمَا أَن غَلَبَة اسْتِعْمَال (إِن) فِي المشكوكات) ينظر الكليات لأبي البقاء الكفوي، ص١٢٥، تح: عدنان درويش – محمد المصري، مؤسسة الرسالة بيروت.

وجاءت (لو) الشرطية الامتناعية التي تدل على امتناع الجواب لامتناع الشرط، أو لما كان سيقع لوقوع غيره[1] لتأكيد قضية في غاية الأهمية بالنسبة لحديث السورة عن الإيمان، وهي عدم إيمان جميع من في الأرض لأن الله لم يشأ هذا لحكمة يعلمها سبحانه قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ (الآية: ٩٩)

ولذا فقد أُكِّدَ جواب الشرط باللام، فالله سبحانه لم يشأ أن يكره الناس جميعا على الإيمان وترك لهم الاختيار، ولذا فقد خُتِمَت الآية بالاستفهام الإنكاري بمعنى النفي في قوله ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ أي ليس لك ذلك.

ولقد جاء النداء في قوله تعالى ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾

وفي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ (الآية: ٥٧)

وذلك للدلالة على أن الخطاب الوارد بعد النداء قد تضمن من الحقائق ما قد بلغ الغاية في الأهمية وهو مما ينبغي أن يختص بالعناية ويلاحظ أن

---

(١) ينظر الكتاب لسيبويه، ج٤ ص٢٢٤، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي القاهرة، ط٣، ١٩٨٨م.

النداء قد كان بيا التي تأتي لنداء البعيد متبوعة بأيها، وهذا الأسلوب من الأساليب التي شاعت في القرآن الكريم وذلك (لاستقلاله بأوجه من التأكيد وأسباب من المبالغة: لأن كل ما نادى الله له عباده- من أوامره ونواهيه، وعظاته وزواجره ووعده ووعيده، واقتصاص أخبار الأمم الدارجة عليهم، وغير ذلك مما أنطق به كتابه- أمور عظام، وخطوب جسام، ومعان- عليهم أن يتيقظوا لها، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها، وهم عنها غافلون، فاقتضت الحال أن ينادوا بالآكد الأبلغ[1].

وأما الاستفهام فقد جاء في عدة مواضع مر بعضها، كقوله تعالى ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ وكان الغرض منه في الأول الإنكار ولتوبيخ والتعجيب من تعجب الكافرين من أن جاءهم رسول منهم، وكان الغرض في الثاني الإنكار على الرسول أن يكون منه إكراه للناس على الإيمان وهو بمعنى النفي أي ليس لك ذلك كما مر.

وأما قوله تعالى ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ ۚ آلْآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ (الآية: ٥١)

وقوله: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ (الآية: ٩١)

(١) ينظر الكشاف للزمخشري ج١ ص٩٠.

ففيه إنكار على الكافرين والمكذبين تأخير إيمانهم إلى وقت لا ينفع فيه الإيمان وهو وقت حلول العذاب، كما يتضمن توبيخهم.

وفي تكرار هذا الظرف (الآن) مسبوقا بهمزة الاستفهام مرتين في حديث السورة عن الإيمان تأكيد للسُنَّة الربانية التي تقضي بعدم نفع الإيمان عند معاينة العذاب، إلا ما كان مع قوم يونس.

ويمكن أن يُجعل هذا التعبير (آلآن) من المعجم الخاص بحديث السورة عن الإيمان.

خامساً: من بلاغة التعبير بالقصر بطريق النفي والاستثناء

جاء القصر بطريق النفي والاستثناء في عدة مواضع في حديث السورة عن الإيمان، ومعلوم أن هذا الطريق من طرق القصر لا يأتي إلا عند الحاجة (لفضل تقرير وتأكيد، ولا يلقاك، إلا حيث تجد النبرة العالية والنغمة الحاسمة، والتعبير الشديد)[1] فمنه قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ (الآية: ١٠٢)

حيث ضُمِّنَت (هل) معنى النفي، فصار كأنه قيل ما ينتظرون إلا مثل العذاب الذي حل بأسلافهم من الأمم المهلكة، وهذه الآية تهديد للمكذبين، وحض لهم على المسارعة بالإيمان ليلحقوا بركب الناجين، وهي تتآزر مع أختها التي ذكرت إهلاك القرون السالفة، لتأكيد الإنذار وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾﴾ (الآية: ١٣).

والسر في التعبير بالاستفهام بدلا من النفي الصريح في قوله: فهل ينتظرون، هو الاستهزاء بهم، والإنكار عليهم تركهم طريق الإيمان، وانتظارهم طريق الهلاك يقول الطاهر بن عاشور (وَالِاسْتِفْهَامُ مَجَازٌ تَهَكُّمِيٌّ إِنْكَارِيٌّ، نُزِّلُوا مَنْزِلَةَ مَنْ يَنْتَظِرُونَ شَيْئًا يَأْتِيهِمْ لِيُؤْمِنُوا، وَلَيْسَ ثَمَّةُ شَيْءٍ يَصْلُحُ لِأَنْ يَنْتَظِرُوهُ إِلَّا أَنْ يَنْتَظِرُوا حُلُولَ مِثْلِ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مَنْ قَبْلِهِمُ الَّتِي هَلَكُوا فِيهَا. وَضُمِّنَ

(١) ينظر دلالات التراكيب الدكتور محمد أبو موسى ص١٠٥، مكتبة وهبة، ط٢، ١٩٨٧م.

الِاسْتِفْهَامُ مَعْنَى النَّفْيِ بِقَرِينَةِ الِاسْتِثْنَاءِ الْمُفَرَّغِ. وَالتَّقْدِيرُ: فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ شَيْئًا مَا يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ)[1].

ومنه أيضـًا قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝١٠٠﴾ (الآية: ١٠٠) (أي ليس لنفس أن تؤمن إلا بإرادة الله ومشيئته وتوفيقه أو ما ينبغي لنفس أن تؤمن إلا بقضائه وقدره ومشيئته وإرادته، والنفس مختارة في الإيمان اختيارا غير مطلق، وليست مستقلة في اختيارها استقلالا تامـًا، بل مقيدة بسنة الله في الخلق، يهدي الله من يشاء بحكمته وعلمه وعدله)[2].

ومن الدقيق في القصر بطريق النفي والاستثناء قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ۝٩٨﴾ (الآية: ٩٨)

وذلك أنه قصر نفع الإيمان عند معاينة العذاب على قوم يونس، فلولا تتضمن معنى النفي أي ما وجدت قرية آمنت فنفعها إيمانها عند معاينة العذاب إلا قوم يونس، وقد مر ترجيح القول بأن هذا كان خصوصية لقوم يونس للأسباب الموضحة آنفـًا، ولأنه ليس هناك ما يدعو لحمل الاستثناء على غير ظاهره، ولو كان الاستثناء غير مقصود لأمكن أن يعبر عن المعنى

---

(١) ينظر التحرير والتنوير ج١١ ص٢٩٨.

(٢) ينظر التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج د. وهبة الزحيلي، ج١١ ص٢٦٧، دار الفكر المعاصر دمشق، ط٢، ١٤١٨ هـ.

بأسلوب مغاير ولو كان قوم يونس غير مخصوصين بهذا الحكم لم يكن لذكرهم مستثنين وجه، ولورود فعل كشفنا بعد الاستثناء، ولا يكون الكشف إلا بعد الوقوع أو قربه، ولما علمه الله منهم، وقد مر بنا أن الإهلاك كان خاصًا بمن علم الله منهم أنهم لا يؤمنون، ولذا قال في غير آية وما كانوا ليؤمنوا، فما كانوا ليؤمنوا، هذا بالإضافة إلى ما كان من يونس مع قومه، والذي أرجح أن يكون سببا لهذه الخصوصية وقد مر تفصيل ذلك.

والدقيق فيه أنه لم يأت بالنفي الصريح قبل الاستثناء، وإنما جاء بلولا التي تفيد التحضيض، وذلك ليتم به الإخبار عن خصوصية قوم يونس عند حمل لولا على معنى النفي، وليتم به معنى التحضيض للمخاطبين بهذا الخطاب على مر الأزمان، ليتداركوا أنفسهم.

وقد ذكر ابن كثير وجهًا آخر في معنى النفي والاستثناء وهو قوله: "لَمْ تُوجَدْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ بِكَمَالِهَا بِنَبِيِّهِمْ مِمَّنْ سَلَفَ مِنَ الْقُرَى، إِلَّا قَوْمَ يُونُس"(١).

ولعل الذي دفعه إلى هذا القول التعبير بلفظ القرية، مما يحتمل المجاز بالحذف أهل قرية، أو المجاز المرسل حيث أطلق المحل وأراد الحال ليفيد شمول الإيمان لجميع القرية.

ولا تعارض بين ما قاله ابن كثير وما رجحناه، وذلك لأنه يمكن الجمع لهم في الخصوصية بين شمول الإيمان لجميع القوم ونفعه لهم عند المعاينة.

(١) ينظر تفسير ابن كثير ج٤ ص٢٩٧، تح: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٩٩٩م.

ومما يؤيد ما ذُكر من استثناء قوم يونس، حيث قُبِلَت توبتهم ونفعهم إيمانهم عند رؤية العذاب، ما رواه ابن الأنباري من (أن الاستثناء من الآية التي قبل هذه، تقديره: حتى يروا العذاب الأليم إِلا قوم يونس، فالاستثناء على هذا متصل غير منقطع)[1].

وبعد: فتلك أهم الدقائق والخصائص البلاغية والأنماط التعبيرية، والوسائل البيانية التي شَكَّلَتْ أعمدة لبناء حديث السورة عن الإيمان، وكوَّنَتْ-بتضافرها-ملامحه الرئيسية، وسماته العامة، وما كان هذا البحث ليستوعبها أو ليحيط بجلها، فكما قيل: إن الكلمة القرآنية كنز معان، وبحر حقائق، وسبق أن ذكرت مخالفتي لابن عطية في أننا تظهر لنا روعة نظم القرآن في الأكثر، وتحتجب في مواضع، ورجحت -والواقع يشهد لي- خلاف هذا القول.

❁❁❁❁❁

(١) ينظر زاد المسير في علم التفسير ج٢ ص٣٥١.

الخاتمة

الحمد لله وكفى والصلاة والسلام على حبيبه المصطفى، وبعد:

فقد كان هذا بحثًا تحت عنوان (**بلاغة القرآن في حديث سورة يونس عن الإيمان**)، انتهيت من دراسته إلى عدة نتائج أورد أهمها فيما يأتي:

أولا: بيان وجه التناسب بين سورة يونس وما قبلها (سورة التوبة)، وما بعدها (سورة هود) بِعِلَّةٍ انفرد بها البحث، وتتوافق مع حديث سورة يونس عن الإيمان، وما كان مع قوم يونس من قبول توبتهم عند معاينة العذاب، وأن ذلك مرده إلى مشيئة الله، فهو يتوب على من يشاء كما فَصَّلَتْ ذلك سورة التوبة، وأن ما كان مع قوم يونس قد كان خاصًا بهم، للأسباب التي فَصَّلَها البحث، وسنة الله تقضي بعدم نفع الإيمان عند المعاينة، وهذا ما فَصَّلَتْه سورة هود، وغير ذلك من وجوه الارتباط بين السورة وسابقتها ولاحقتها على النحو المبيَّن آنفًا.

ثانياً: ورود الإيمان بمشتقاته في السورة ما يقارب ثلاثين مرة، بصيغ مختلفة بين الفعل الماضي والفعل المضارع والمصدر، واسم الفاعل، ولكن الغلبة كانت للفعل الماضي، حيث ورد ثلاث عشرة مرة، وعُلِّلَ ذلك بمجيئه غالبًا في سياق بيان جزاء المؤمنين، فأوثر الماضي لبيان استحقاق الجزاء، ويتلوه الفعل المضارع الذي ورد تسع مرات، وعُلِّلَ ذلك بوروده غالبًا في سياق بيان الطبع على القلوب وعدم توقع الإيمان، في الحال أو الاستقبال ولذا فغالبا ما يسبقه النفي، وجاء الاسم ست مرات، وجاء المصدر مرتين، وقد فَصَّل البحث القول في تحليلها تحليلا بلاغيًا كاشفًا عن أسرارها ودقائقها وسياقات ورودها المختلفة.

ثالثا: بيان السر البلاغي في العلاقة بين تسمية السورة بيونس واحتفائها بالحديث عن الإيمان، وقد استند البحث إلى تحليل المعنى اللغوي للفظ

يونس، وتأويله على أساس صيرورته علامةً سميائية، وعتبَةً نصيَّة، تُكَثِّف العديد من المعاني على ما ذُكِر في علم السميوطيقا، أو ما ذكره ابن أبي الإصبع عن العنوان، وانتهى إلى أن اسم السورة يحث كل من يتصدى للدعوة إلى الإيمان بالله على التحلي بالصبر وسعة الصدر.

رابعاً: عزا البحث السر في تسمية السورة بيونس على الرغم من عدم ذكر قصته فيها، مثلما ذُكِرَتْ في غيرها من السور، إلى أن الخصوصية التي اختص الله بها قوم يونس قد نجمت عن مغاضبة يونس لهم وعدم صبره عليهم، وقد فَصَّل البحث القول في هذا مُدَعَّمًا بالأدلة المتكِئَة على أقوال العلماء الثقات، وعلى التحليل البلاغي للآية التي ورد فيها الاستثناء.

خامساً: بيان العلاقة بين مقصود السورة الأعظم، وهو الدعوة إلى الوحدانية، أو بيان تنزيل القرآن من عند الله وأنه حق، وبين حديثها عن الإيمان، حيث أثبت البحث العلاقة الوثيقة بينهما على النحو الموضح مُفَصَّلاً في موضعه.

سادساً: الترابط والتلاحم بين آيات حديث السورة عن الإيمان، وبلاغة تواليها، حتى إننا لو حاولنا أن نرتب هذه الآيات ترتيبًا آخر غير الذي ورد في سياق السورة، لأفسدنا تسلسل المعاني، وفرقنا بينها تفريقًا لا يلتئم به شملها أبداً، وذلك لبناء بعضها على بعض، ولإحالة بعضها إلى بعض، ولِنمو المعنى في آية لاحقة بعدما كان جنينًا في سابقتها، ولإزالة بعضها لشبهات تثيرها بعضها، ولتضمن بعضها إجابات لأسئلة أثارته سابقاتها، ولمراعاتها لطبيعة النفس البشرية التي تتلقى الأمر بشيء من الريبة، ثم تذعن له إن أقيمت عليه الأدلة وَعَضَّدَتْه الشواهد والبراهين، وقد تعاند وتتنكر لِهَوًى، وغير ذلك من الأحوال التي تطرأ على المتلقي.

وإنَّ تكرار أصل المعنى مع اختلاف الصياغة اختلافًا يسيرا، أو بزيادات مفيدة قد كان من وجوه بلاغة القرآن وإعجازه.

ومن وجوه البلاغة أيضا في حديث السورة عن الإيمان ما أوضحناه من احتمال الآية لوجه من الوجوه باعتبار ما، ثم احتمالها لضده باعتبار آخر، حيث تُعدُّ الآية إجمالا بالنظر إلى آية أخرى، كما تُعد تفصيلا إذا ما وضعناها بإزاء بعض الآيات، وتلك سمة غالبة على التعبير القرآني، وقد تجلَّت في حديث السورة عن الإيمان على النحو المُفَصَّل آنفًا.

سابعاً: جمع حديث السورة عن الإيمان بين حسن الابتداء وبراعة الاستهلال وحسن الختام، وبيان ذلك، أن أول آية فيه قد اشتملت على ما يدل على مضمون حديث السورة عن الإيمان، بل ما يشير إلى مضمون السورة بأكملها، حيث ذُكِرَ فيه الإنذار والتبشير، مجملين، ثم فُصِّلا فيما بعد في عديد من آيات حديث السورة عن الإيمان وفي غيرها من آيات السورة، وهذه هي براعة الاستهلال، وأما حسن الختام، فَلِتَضَمُّن آخر آيات الحديث عن الإيمان الأمر به، والنهي عن ضده وهو الشرك، والنهي عن دعاء أحد من دون الله وبيان عاقبة المخالفة وهي الصيرورة إلى ظلم النفس، وإذا كان مقصود السورة الأعظم هو الدعوة إلى الإيمان بالله وبكتبه وبرسوله، فأي معنى يحسن أن يختم به الحديث عن الإيمان غير الأمر به والنهي عن ضده وبيان عاقبة المخالفين.؟

ثامناً: تجلَّت البلاغة الصوتية بالمعنى الذي تبناه البحث في حديث السورة عن الإيمان بتكرار حرف الراء الذي من صفاته التكرير، وتناسب هذه الصفة مع الدعوة إلى الإيمان وما تحتاجه من تكرير ومعاودة، وكون هذا الحرف أحد حروف فِعْلَي أنذر وبَشِّر، هذا بالإضافة إلى ما أوضحه البحث من دلالة كون الحرف في هذين الفعلين ساكنًا مكسوراً ما قبله مما يجعله

مُرَقَّقًا، تلك الرقة المطلوبة في مجال الدعوة، وغير ذلك من دلالات صوتية كتضعيف عين بَشِّر وصوت الشين، وقد تم تفصيلها في موضعها.

تاسعاً: شيوع أساليب التوكيد - على اختلافها-في حديث السورة عن الإيمان، بالإضافة إلى تآزرها وتكاتفها لِتُكَوِّنَ قذيفةً مدمرةً تَنْقَضُّ على جدار الإنكار الذي بناه الكافرون بينهم وبين ما جاء به الوحي من إنذار وتبشير، لتنسفه نسفًا، وتذروه ذرواً.

وليس هذا وحده هو سبب تكاثر المؤكدات في حديث السورة عن الإيمان، لأن هذا الحديث مشتمل على مقامين من أهم المقامات التي يكثر فيها التوكيد، ولو كان المخاطب غير منكر وهذان هما مقاما الوعد والوعيد التبشير والإنذار فيكثر التوكيد في مقام الوعد لتزداد النفوس به يقينًا واطمئنانًا ويكثر في مقام الوعيد ليرتعب المخاطب وترتعد أوصاله فلعله يراجع نفسه ويرتدع.

عاشراً: شيوع التعريف بالموصولية شيوعًا ملحوظًا في حديث السورة عن الإيمان ولعل السر في ذلك الإشارة إلى نوع الخبر، أو كما قيل: الإيماء إلى وجه بناء الخبر، وبيان استحقاق كل فريق للجزاء الوارد في الخبر بما اتصف به من صلة الموصول، بالإضافة إلى كون الأفعال الواردة صلة للموصول أفعالاً ماضوية تدل على تحقق الفعل ورسوخ فاعله فيه، فالذين كفروا ثبت لهم الكفر واستقر تلبسهم به بدلالة الفعل الماضي، وكذلك الذين آمنوا فقد عُرِفوا بالإيمان وشاع عنهم، كما أن الاسم الموصول - فيما أرى - يجذب انتباه المتلقي ويجعله في حالة تَشَوُّف وترقب للصلة، لعلمه بضرورة إيرادها، فإذا ما أدركها، ترقب نتيجتها المتمثلة في الخبر، بخلاف ما لو قيل الكافرون أو المؤمنون، فإن المتلقي لا يكون متيقظًا على النحو الذي يحدثه اسم الموصول.

حادي عشر: بلاغة اصطفاء الكلمة، وتكرار بعض التراكيب الخاصة مما يُشَكِّلُ معجمًا خاصًا بحديث السورة عن الإيمان، كألفاظ: ظلموا المجرمين فسقوا المعتدين، كلمة ربك، حقت، حقًا وعد الله كذلك، وتراكيب ما كانوا ليؤمنوا، فما كانوا ليؤمنوا، وجاءتهم رسلهم بالبينات، فجاؤوهم بالبينات، وقد أوضح البحث الفروق في صياغة هذه التراكيب، كما أوضح السر في اصطفاء جميع الألفاظ ومناسبتها لآياتها وسياقها.

ثاني عشر تكاثر الأساليب الإنشائية تدعيما لحديث السورة عن الإيمان، فقد ورد الإنشاء الطلبي أمراً ونهيًا واستفهامًا ونداءً في مواضع كثيرة من حديث السورة عن الإيمان، ليؤكد الإنذار والتبشير الذين يمثلان أساس ذلك الحديث، وليثبت بعض الحقائق المتعلقة بقضية الإيمان، وليعمل على ترسيخها في القلوب والعقول، متكئا على ما له من خصوصية في تحريك النفوس وبعثرة المشاعر، واجتذاب الأسماع.

ثالث عشر: مجيء أسلوب القصر بطريق النفي والاستثناء لتأكيد بعض الحقائق المتعلقة بقضية الإيمان، وقد فَصَّل البحث القول في جميع مواضعه.

هذا والله الموفق والمستعان

ثبت بأهم المصادر والمراجع

أولا: القرآن الكريم

ثانيا: الكتب

١-الإتقان في علوم القرآن للسيوطي تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤م.

٢-إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود، دار إحياء التراث العربي بيروت.

٣-الأساس في التفسير لسعيد حوى، دار السلام القاهرة، ط٦، ١٤٢٤ه.

٤-الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز للعز بن عبد السلام، تح: رمزي بن سعد الدين، دار البشائر الإسلامية، ط١، ١٤٠٨ه.

٥-إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي دار الكتاب العربي بيروت، ط٨، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٥م.

٦-أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي، تح: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط١، ١٤١٨ه.

٧-البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، تح: صدقي محمد جميل، دار الفكر بيروت، ١٤٢٠ه.

٨-بديع القرآن لابن أبي الإصبع المصري، تح: حفني شرف، دار نهضة مصر.

٩-البرهان في علوم القرآن للزركشي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط١، ١٩٥٧ م، ثم صورته دار المعرفة لبنان.

١٠-بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي، تحـ: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، بدون.

١١-بغية الإيضاح للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، ١٩٩٩م.
١٢-البلاغة الصوتية في القرآن الكريم، د. محمد إبراهيم شادي، دار الرسالة، ط١، ١٩٨٨م.
١٣-تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، لابن أبي الإصبع المصري، تح: حفني شرف، الناشر: الجمهورية العربية المتحدة – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، بدون.
١٤-التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر تونس، ١٩٨٤م.
١٥-التفسير البسيط للواحدي، عمادة البحث العلمي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية، ط١، ١٤٣٠هـ.
١٦-تفسير البغوي، تح: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ.
١٧-التفسير الحديث لمحمد عزت دروزة، دار إحياء الكتب العربية القاهرة، ١٣٨٣هـ.
١٨-تفسير السمعاني، تح: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس، دار الوطن الرياض السعودية، ط١، ١٤١٨ هـ، ١٩٩٧م.
١٩-تفسير الطبري، تح: أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠ هـ، ٢٠٠٠م.
٢٠-تفسير القرآن العظيم ابن كثير تح: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٩٩٩م.
٢١-تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن، تح: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية القاهرة، ط٢، ١٩٦٤م.

٢٢-التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج د. وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر دمشق، ط٢، ١٤١٨ه.
٢٣-تناسق الدرر في مناسبات السور للسيوطي، تح: د. جميل عويضة، ٢٠١٠م.
٢٤-الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي، تح: د. فخر الدين قباوة، محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط١، ١٩٩٢م.
٢٥-حاشية الدسوقي على مختصر المعاني، تح: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية بيروت.
٢٦-خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي، تح: عصام شقيو، دار ومكتبة الهلال بيروت، ٢٠٠٤م.
٢٧-خصائص التراكيب د. محمد أبو موسى، مكتبة وهبة القاهرة، ط٧.
٢٨-خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية د. عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، ط١، ١٩٩٢م.
٢٩-خصائص الحروف العربية ومعانيها لحسن عباس، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٨ م،
٣٠-الخصائص لابن جني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٤، بدون.
٣١-الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي، تح: أحمد الخراط، دار القلم
دمشق، بدون.
٣٢-دراسات جديدة في إعجاز القرآن د. عبد العظيم المطعني، ط١، ١٩٩٦م.
٣٣-دلالات التراكيب الدكتور محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط٢، ١٩٨٧م.

٣٤-دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني، تح: محمود شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، ط٣، ١٩٩٢م.
٣٥-روح المعاني للألوسي، تح: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ١٤١٥ه.
٣٦-زاد المسير في علم التفسير لأبي الفرج الجوزي، تح: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي بيروت، ط١، ١٤٢٢ه.
٣٧-زهرة التفاسير الشيخ محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، بدون.
٣٨-السيمائيات مفاهيمها وتطبيقاتها سعيد بن كراد، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية – اللاذقية، ط٣، ٢٠١٢م.
٣٩-سنن أبي داود تح: شعَيب الأرنؤوط، دار الرسالة العالمية، ط١، ٢٠٠٩م.
٤٠-شرح تسهيل الفوائد لابن مالك تح: د. عبد الرحمن السيد، د. محمد بدوي، هجر للطباعة والنشر والإعلان، ط١، ١٩٩٠م.
٤١-شرح دلائل الإعجاز للدكتور محمد إبراهيم شادي، دار اليقين المنصورة مصر،
ط٢، ٢٠١٣م.
٤٢-الصحاح للجوهري، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين بيروت، ط٤، ١٩٨٧م.
٤٣-فتح البيان في مقاصد القرآن لصديق خان القِنَّوجي، راجعه عبد الله الأنصاري، المكتبة العصرية بيروت، ١٩٩٢م.
٤٤-فتح رب البرية شرح المقدمة الجزرية في علم التجويد صفوت محمود سالم، دار نور المكتبات، جدة – المملكة العربية السعودية، ط٢، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣م.

٤٥-فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، د. غالب بن علي عواجي، المكتبة العصرية الذهبية، جدة، طـ٤، ٢٠٠١م.
٤٦-في ظلال القرآن السيد قطب، دار الشروق بيروت القاهرة، ط١٧، ١٤١٢ه.
٤٧-القاموس المحيط للفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة بيروت لبنان، طـ٨، ٢٠٠٥م.
٤٨- الكتاب لسيبويه، تحـ عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي القاهرة، طـ٣، ١٩٨٨م.
٤٩- الكشاف للزمخشري، دار الكتاب العربي بيروت، ط٣، ١٤٠٧ه.
٥٠- الكليات لأبي البقاء الكفوي، تح: عدنان درويش – محمد المصري، مؤسسة الرسالة بيروت.
٥١- لباب التأويل في معاني التنزيل، لعلاء الدين الخازن، تح: محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ١٤١٥ه.
٥٢- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية، تح: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ١٤٢٢ه.
٥٣- مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور للبقاعي، مكتبة المعارف الرياض، ط١، ١٩٨٧م.
٥٤- المصباح في المعاني والبيان والبديع لبدر الدين ابن مالك، تح: د. حسني عبد الجليل يوسف، مكتبة الآداب، بدون
٥٥- معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط١، ١٩٨٨م.
٥٦- مفاتيح الغيب للرازي، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ.

٥٧- مقاييس اللغة لابن فارس، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٩٧٩م.

٥٨- المقدمات الأساسية في علوم القرآن لعبد الله العنزي، مكتب البحوث الإسلامية ليدز بريطانيا، ط١، ٢٠٠١م.

٥٩- من بلاغة القرآن د. أحمد بدوي نهضة مصر القاهرة، ٢٠٠٥م.

٦٠- النبأ العظيم محمد عبد الله دراز، اعتنى به أحمد مصطفى فضلية، دار القلم، ٢٠٠٥م.

٦١- نحو تفسير موضوعي محمد الغزالي، دار نهضة مصر، ط١، بدون.

٦٢- نظم الدرر للبقاعي، دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة، بدون.

٦٣- النظم الفني في القرآن الشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، بدون.

٦٤- النكت والعيون للماوردي، تح: السيد عبد المقصود عبد الرحيم، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، بدون.

٦٥- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للرازي، تح: الدكتور نصر الله حاجي مفتي أوغلي، دار صادر بيروت، ط١، ٢٠٠٤م.